تاريخ مرقد الإمام علي (عليه السلام)

والأطوار المبكرة للنجف الأشرف

الاستاذ: كريم مرزة الأسدي*

كلام الأمير... أمير الكلام..!!

((ما أحسن منظرك، وأطيب قعرك! اللّهمّ اجعل قبري بها ...))[1]

بهذه الكلمات الخالدة للإمام علي (عليه السلام)، تأطرت النجف قبل تأسيسها، وخلقت قبل ولادتها في عالم الغيب وقدسية الإمامة الطاهرة.

لك أن تقتنع.. ولك أن تتفسح وتتطلع.. الحقيقة واحدة، من أرض نجاف كالمسناة.. تصدّ الماء، وتطلّ على البساتين والنخل والأنهار، وهي قاحلة جدباء أو تكاد...!! إلى مدينة عامرة تنضح بالخير والبركة والعطاء... من أطلال دارسة تعصف بها صرصر الرياح إلى حاضرة زاهية بأفكار العلماء ومجالس الشعراء... تكتسي بالأبهة والهيبة والوقار.. من (ظهر الكوفة) و(نجف الحيرة) إلى (حيرة النجف) و(ظهر الكوفة)... غلبت المكان وتحدت الزمان:

قم وارمق النجفَ الشريفَ بنظرةٍ ... يرتدّ طرفك وهو باك أرمدُ

تلك العظام أعزّ ربّك قدرَها ... فتكاد لولا خوف ربّك تعبد

أبداً تُباركها الوفود يحثها ... من كلّ حدب شوقها المتوقد

هذا ما قاله الشاعر العربي السوري محمّد مجذوب.

ما قصة هذه البقعة الطاهرة والمدينة المقدسة التي نوّرت الدنيا، وجذبت الناس بفكرها الإسلامي، وأنفاسها العربية، ونزعتها الإنسانية؟ والحقيقة أنّ قصتها تطول وتطول، لذلك

---

* شاعر وباحث عراقي ــ امريكا.

البحث عن : النجف الأشرف – إسهامات في الحضارة الانسانية ١/١٧٨-٢٢٩.

(١) المجلسي، محمّد باقر: بحار الأنوار، ج٤٢ / ص: ١٢٩، طبعة دار إحياء التراث ــ بيروت.

www.noormags.ir

نقتصر على الخلاصة الموجزة عن مرقد الإمام، والأطوار المبكرة لمدينة النجف الأشرف، ولكن لا بدّ لنا من إلقاء نظرة على النجف من حيث تسميتها وأسماؤها لما لها من علاقة في معرفة طبيعتها الجغرافية وعمقها التأريخي، وعلّة اختيارها مدفناً.

النجف لغة:

((النجف محركة وبهاء: مكان لا يعلوه الماء، مستطيل منقاد، ويكون في بطن الوادي، وقد يكون ببطن الأرض. ج: نجاف. أو هي: أرض مستديرة مشرفة على ما حولها. والنجف محركة: التل أو قشور الصلّيان))[١]. أما ابن دريد في (جمهرته) فيذهب إلى التخصيص قائلاً: ((النجف علوّ من الأرض وغلظ نحو نجف الكوفة، وكل شيء عرضته، فقد نجفته، ونصل نجيف ومنجوف إذا كان عريضاً وبه سمي الرجل منجوفاً))[٢]. وعندما نصل إلى (تاج العروس) نرى أن الزبيدي أسهب في وصف النجف كمدينة فيها قبر الإمام علي (عليه السلام)، ولها مقابرها ومنازلها؛ فينقل لنا عدّة أقوال: ((قال الأزهري: النجفة مسنّاة بظاهر الكوفة تمنع ماء السيل أن يلعو مقابرها ومنازلها. وقال أبو العلاء العرضي: النجف قرية على باب الكوفة... وقال السهلي: بالفرع عينان يقال لأحدهما الغريض، وللآخر النجف يسقيان عشرين ألف نخلة وهو بظهر الكوفة كالمسناة، وبالقرب من هذا الموضع قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام))[٣].

وفذلكة الأقوال: النجف أرض مرتفعة متسعة مكشوفة كالمسنّاة تصدّ الماء فلا يعلوها، وتشرف على ما حولها، يطرّها الجفاف، وهذا يعني أن هواءها صحّي غير مشبع بالرطوبة، وربّما لهذه الأسباب طلب الإمام (عليه السلام) أن يكون مدفنه بها فتشرّفت به ونعت بالنجف الأشرف. وهنالك عدّة أسماء أخرى للنجف الأشرف منها:

١ ـ خد العذراء: وهو (ظهر الحيرة) إذ كانت تسميه العرب بهذا الاسم منذ عهد المناذرة، وكان معشاباً فيه نبت الشيح والقيصوم والخزامى والزعفران وشقائق النعمان والأقحوان، فمرّ النعمان بالشقائق فأعجبته فقال: مَن نزع من هذا شيئاً فانزعوا كتفه فسميّت شقائق النعمان[٤].

٢ ـ اللسان: وكان بظهر الكوفة الّذي هو النجف يقال له اللسان على التشبيه أي (لسان

---

(١) الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ص: ١١٠٤ ــ ١١٠٥، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٩٧م.

(٢) ابن دريد (جمهرة اللغة)، م٢ / ص: ١٠٨، مطبعة دار المعارف العثمانية ١٣٤٥هـ.

(٣) الزبيدي: تاج العروس، م٦ / ص: ٢٥١، السهلي هكذا ورد وهو السهيلي عبد الرحمن توفي ٥٨١هـ.

(٤) محبوبة: ج١ / ص: ٤، الهامش نقلاً عن كتاب الأذكياء (لابن الجوزي) بلا.

www.noormags.ir

البر)[١]، وكانت العرب تقول: أدلع البرّ لسانه في الريف، فما كان يلي الفرات منه فهو الملطاط وما كان يلي البطن منه فهو النجاف، قال عدي بن زيد:

ويـــح أمّ دار حللنـــا بهـــا بـــين الثـــوية والمردمـــه
لـــسان لعربـــة ذو ولـــغة تولّـــغ فـــي الريـــف بالهندمـــه

وينقل (ياقوت) عن كتاب (الفتوح) ((ولما أراد سعد تمصير الكوفة، أشار عليه من رأى العراق من وجوه العرب باللسان، وظهر الكوفة يقال له لسان))[٢].

٣ ـ براثا: تعني كما ورد في (القاموس) ((البرث: الأرض السهلة، أو الجبل من الرمل السهل، أو أسهل الأرض وأحسنها، جمع براث))[٣]. وقال الأصمعي وابن عرابي: ((البرث أرض لينة مستوية تنبت الشعير، والجمع من كلّ ذلك (براث) بالكسر و(أبراث وبروث) على القياس، وشاهد البرث للواحد قول الحصري:

على جانبيّ حائر مفرطٍ ببرثٍ تبوأته معـــشبِ

والبرث الأرض البيضاء الرقيقة السهلة السريعة النبات))[٤] ونرى هذه المواصفات تنطبق على أرض النجف، فمن الممكن أنها سُميّت بهذا الاسم قديماً.

٤ ـ ظهر الكوفة: كثيراً ما كان يطلق على النجف قديماً (ظهر الكوفة)، فماذا تعني كلمتا (الظهر) و(البطن) عند العرب، عندما تطلقان على الأرض مجازاً؟ قال ابن سيده: ((وطريق الظهر طريق البر، وذلك حين يكون ما لان وسهل ورقّ واطمأنّ)). وقال ابن شميل: ((ظاهر الجبل أعلاه وظاهر كلّ شيء أعلاه استوى أو لم يستو ظاهره، وفي الأساس الظاهرة الأرض المشرفة))[٥]. ومن المعلوم أن النجف طريق البر بالنسبة للكوفة، وهي أرض مرتفعة مشرفة عليها.

٥ ـ الربوة: ما ارتفع من الأرض وجمعها ربى[٦]، ومنه قوله تعالى: ﴿وآويناهما إلى ربوة

---

(١) د. مصطفى جواد: موسوعات العتبات المقدسة (قسم النجف)، ج١ / ص: ١٢. الزبيدي: م٩ / ص: ٣٣٤.
(٢) راجع الحموي: م٥ / ص: ١٦.
(٣) الفيروزآبادي: القاموس، ص: ٢١١.
(٤) الزبيدي: م١ / ص: ٦٠١، وراجع أيضاً ابن منظور: م١ / ص: ٣٥٨، مادة ((برث))، طبعة دار إحياء التراث ـ بيروت ١٩٩٥.
(٥) الزبيدي: م٣ / ص: ٣٧١ ـ ٣٧٥.
(٦) الحموي: م٣ / ص: ٢٦.

www.noormags.ir

ذات قرار ومعين﴾[١]، والربوة: النجف كما هو مفسّر[٢]. وبعض المفسرين يذهبون إلى أنها ((أرض بيت المقدس أو الرملة أو دمشق أو مصر))[٣]. و(الربوة) التي تقع عليها مدينة (النجف) اليوم يرتفع أعلاها عن سطح البحر بمقدار خمسة وستين متراً، وتتكون من عشر طبقات، كما دوّنها عبد المحسن شلاش في دراسة له وعنوانها ((آبار النجف ومجاريها))[٤].

٦ ـ الغري: الغري الحسن الوجه أو البناء الجيد الحسن، أو كل ما يطلى بالغراء، والنسبة إليه (الغروي)، ومنه ((الغريان وهما بناءان مشهوران بالكوفة عند الثوية حيث مرقد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، زعموا بناهما بعض ملوك الحيرة))[٥].

٧ ـ بانقيا: بكسر النون، ناحية من نواحي الكوفة ورد ذكرها في (الفتوح)، ففي أخبار إبراهيم الخليل (عليه السلام): ((خرج من بابل على حمار له ومعه ابن أخيه لوط يسوق غنماً، ويحمل دلواً على عاتقه حتى نزل (بانقيا) وكان طولها اثني عشر فرسخاً، وكانوا يزلزلون في كلّ ليلة، فلما بات إبراهيم عندهم لم يزلزلوا...فجاؤوه وعرضوا عليه المقام عندهم وبذلوا له البذول، فقال: إنما خرجت مهاجراً إلى ربّي، وخرج حتّى أتى إلى النجف، فلما رآه رجع أدراجه، أي من حيث مضى، فتباشروا وظنوا أنّه راغب فيما بذلوا له، فقال لهم: لمن تلك الأرض (يعني النجف)؟ قالوا: هي لنا، قال: فتبيعونها؟ قالوا: هي لك فوالله ما تنبت شيئاً، فقال: لا أحبّها إلا شراء، فدفع إليهم غنيمات كنّ معه بها، والغنم يقال لها بالنبطية نقيا، فقال: أكره أن آخذها بغير ثمن))[٦]. وضمنها الأعشى منذ العصر الجاهلي بشعره قائلاً:

فمـا نيلُ مصر إذ تسامى عُبابُهُ ولا بحر بانقيـا إذا راح مُفعَـمـا

بأجودَ منه نائلاً إن بعضـهم إذا سُئل المعروفَ صدّ وجمجمـا[٧]

وذكرها الأعشى مرة أخرى. وإبان الفتوحات الإسلامية ورد ذكر (بانقيا) أيضاً، قال ضرار بن الأزور الأسدي:

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥٠.

(٢) الشرقي، طالب: النجف الأشرف، ص: ١٠.

(٣) تفسير عبد الله شبر، ص: ٣٣٣.

(٤) الأسدي، حسن: ثورة النجف، ص: ١٨ وما بعدها لمعرفة الطبقات، وزارة الإعلام العراقية ١٩٧٥م.

(٥) الزبيدي: م١٠ / ص: ٢٦٤.

(٦) الحموي: م١ / ص: ٣٣١ ـ ٣٣٢.

(٧) المصدر السابق.

www.noormags.ir

أرقتُ ببانقيا ومَن يلق مثلما لقيتُ ببانقيا من الحرب يأرقُ[١]

٨ ـ المشهد: بالفتح وهي كلمة تعني المجمع بين الناس، أو محضر الناس ومجمعهم، ومشاهد مكة: المواطن التي يجتمعون بها[٢]، وقد تستعمل كلمة (مشهد) لمكان استشهاد الشهيد والجمع (مشاهد)[٣]. ولما يحجّ الناس من كلّ حدب وصوب إلى العتبات المقدسة، ويجتمع الخلق فيها للزيارة، ومعظم الأئمة (عليهم السلام) استشهدوا قتلاً أو سماً، فاقترنت الكلمة بجميعها؛ ولكن اختصت مدينة النجف الأشرف بـ(المشهد) بشكل مميز، لذا يقال لكل نجفي (مشهدي)، وإذا قيل (المشهدان)، فيعني ذلك النجف وكربلاء، والكلمة مستعملة منذ القدم، إذ يوردها الطبري وابن الأثير وغيرهما في كتبهم. وقال أبو إسحاق الصابي يمدح عضد الدولة عند زيارته للحرم العلوي الشريف:

توجهت نحو المشهد العلم الفرد على اليمن والتوفيق والطائر السعد

وقال السيّد علي خان[٤] صاحب السلافة عند زيارته المرقد العلوي ذاكراً المشهد:

يا صاح هذا (المشهد) الأقدسُ قرّت به الأعين والأنفسُ
والنجف الأشرف بانت لنا أعلامه والمعهد الأقدس
والقبّة البيضاء قد أشرقت ينجاب عن لألائها الحندس[٥]

٩ ـ وادي السلام: ويراد به جبانة النجف الواسعة، ودلالة لفظ (وادي السلام) على النجف من باب ذكر لفظ الجزء والمراد منه الكل، وتسمية الوادي بـ(وادي السلام) لاعتقاد أن الأجساد والنفوس تنعم فيه بسلام وأمان من الوحشة والعذاب لقربها من مرقد الإمام علي (عليه السلام)[٦]. ويقال أن مرقدي آدم ونوح (عليهما السلام) إلى جانبي مرقد الإمام (عليه السلام)، أما هود وصالح (عليهما السلام) فمرقداهما في وادي السلام ولهما مزار يرتاده بعض الزوار، وإنّ الإمام علياً (عليه السلام) حسب ما يذكر لنا ابن طاووس أشار إلى معرفته

---

(١) الجاسم، أحمد: شعر بني أسد، ص: ٤٥٦. محبوبة: ج١ / ص: ١٨ الهامش. الحموي: م١ / ص: ٣٣٢.

(٢) الفيروزآبادي: ص: ٣٧٢، ابن منظور: ج٣ / ص: ٢٤١. الزبيدي: ج٣ / ص: ٣٧٣.

(٣) راجع المنجد في اللغة، باب ((شهد))، ص: ٤٠٦.

(٤) السيّد علي خان، الملقب صدر الدين ابن الأمير نظام الدين ينتهي نسبه إلى زيد بن علي، ولد في المدينة ١٠٥٢هـ، وتوفي سنة ١١٢٠هـ، له ديوان شعر ١٨٣ صفحة متوسطة، قيل عنه كما يروي السيّد الأمين: ((الإمام الّذي لم يسمع بمثله الدهر))، أعيان الشيعة، م٨ / ص: ١٥٢.

(٥) محبوبة: ج١ / ص: ١٢.

(٦) الشرقي، طالب: ص: ٩.

www.noormags.ir

لقبريهما في حياته، وأوصى ابنه الحسن (عليه السلام) قائلاً: ((ادفنوني في هذا الظهر في قبر أخوي هود وصالح))[١]. ويروي لنا صاحب ((روضات الجنات)): ((أنّ أول مَن دفن بالنجف الّذي هو ظهر الكوفة (خباب بن الأرت) من أصحاب رسول الله (ص) وهو الّذي شهد بدراً وما بعدها.. نزل الكوفة ومات بها بعد أن شهد مع عليّ صفين والنهروان، وصلّى عليه علي (عليه السلام).....))[٢].

والنجف تعجّ بمقابر الأنبياء والصحابة والملوك والسلاطين ولو أردنا ذكر مَن دفن في النجف من الصحابة[٣] والتابعين وأمراء الحمدانيين والفاطميين وسلاطين البويهيين والصفويين والقاجاريين ومدافن الجلائريين، والوزراء والشعراء والعلماء والعظماء لاحتجنا إلى كتاب مستقل، ولكن لا بأس من أن نروي هذه الحادثة لنبيّن مدى اهتمام بعض الرجال لكي يُدفنوا في النجف الأشرف، وللقارئ أن يقيس.

يذكر ابن الأثير في أحداث سنة ٤١٨هـ (١٠٢٧م) ((أما أبو القاسم بن المغربي فتوفي في هذه السنة بميافارقين (ديار بكر)، وكان عمره ستاً وأربعين سنة، ولما أحسّ بالموت كتب كتاباً عن نفسه إلى كلّ مَن يعرفه من الأمراء والرؤساء الّذين بينه وبين الكوفة ويعرّفهم أن حظية له توفيت، وأنّه سير تابوتها إلى مشهد أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، وخاطبهم في المراعاة لَمن في صحبته. وكان قصده أن لا يتعرض أحد لتابوته بمنع، وينطوي خبره. فلما توفي سار به أصحابه كما أمرهم، وأوصلوا الكتب، فلم يتعرض أحد إليه. فدفن بالمشهد، ولم يعلم أحد إلا بعد دفنه))[٤]. والمغربي المذكور هو وزير شرف الدولة البويهي، وهنالك شخصيات أعظم منه بكثير، ولكن لهذه الحادثة دلالة خاصة كما ذكرنا. ويوجد قبر ينسب إلى كميل بن زياد النخعي الّذي قتله الحجاج سنة ٨٢هـ، وهو من أصحاب الإمام علي (عليه السلام)، وموقعه على بضعة كيلومترات من مركز المدينة على شمال المتجه إلى الكوفة، وغطته مباني مدينة النجف وتعدّته إلى الكوفة حيث اتصلت الكوفة بالنجف عمرانياً.

أما الحنانة[٥] وهي أقرب إلى النجف من قبر كميل بن وبالاتجاه نفسه، وتعتبر نهاية أرض

---

(١) ابن طاووس: فرحة الغري، ص: ٣٨.

(٢) الخونساري، محمّد باقر: روضات الجنات، ج٤ / ص: ٨٤. مكتبة اسماعيليان، قم ١٣٩٠هـ.

(٣) يروي صاحب ((فرحة الغري))، ص: ١٢٧: ((توفي بالكوفة ٣١٣ من الصحابة لا يدرى قبر أحد منهم إلا قبر علي (عليه السلام).

(٤) ابن الأثير: ج٩ / ص: ٣٦٢.

(٥) تسمية ((الحنانة)): إما هي كلمة مشتقة من الحنين، وذلك عندما مرّت سبايا الإمام الحسين (عليه السلام)

www.noormags.ir

الثوية، يحيط بها مسجد يسمى باسمها (مسجد الحنانة)، وهو كبير نسبياً وفيه مشهد رأس الإمام الحسين (عليه السلام) يقع في وسط المسجد، وعليه ضريح من الخشب، وقد قامت عليه قبة كُيست بالقاشاني وشيدت بجانبها مأذنة حديدية الصنع سنة (١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م)، وتقع الحنانة على أطراف موضع معروف منذ العصر الجاهلي يُسمى بـ((الثوية))، وكان بالثوية سجن للمناذرة (ملوك الحيرة)، وكان يُقال لمن حُبس بها: ثوى، أي أقام، وتضم الثوية قبر أبي موسى الأشعري والمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه[١]، وذكر الثوية كثير من الشعراء ومنهم المتنبي إذ يقول:

وليلاً توسدنا (الثوية) تحته كأن ثراها عنبر في المرافق

بلاد إذا زار الحسان بغيرها حصى تربها ثقبنه للمخانق

والمتنبي قد ذكر (البسيطة) أيضاً وهي أرض قريبة من الثوية، تقع عليها (محلة غازي) من الجديدة إذ يقول:

بسيطةُ مهلاً سُقيتِ القطارا تركتِ عيون عبيدي حيارى[٢]

والحقيقة لم يبق من أسماء النجف في يومنا هذا إلا النجف الأشرف و(وادي السلام) ويراد به الجبانة، و (الغري) وكثيراً ما تستعمل الكلمة في الشعر والنثر، ويطلق أحياناً على النجفيين بـ(المشاهدة) وعلى النجفي بـ(المشهدي)، ولا تطلق الكلمة على غيرهم من سكان العتبات المقدسة، ويعتز النجفي بهذا اللقب ويعتبره شرفاً له، ولكن كيف نشأت النجف وشيد المشهد الشريف؟ هذا ما سنتناوله باختصار في بحثنا المتواضع هذا. والله الموفق لكل خير.

مدفن الإمام علي (عليه السلام) ومكان مرقده الشريف:

بعد وفاة الإمام علي (عليه السلام) في ليلة إحدى وعشرين من رمضان الكريم سنة ٤٠هـ (٢٤ / ١/ ٦٦١م)، إثر ضربة اللعين عبد الرحمن بن ملجم المرادي، وكان الإمام ابن ثلاث

بموضع الثوية، إذ عبثوا برأسهُ الشريف ورؤوس أصحابه، فصدرت أصوات من الحنين جزعاً على ما حلّ بهم، فالكلمة عربية الاشتقاق أصيلة، وقد تأتي من تحنّن عليه: أي ترحم، والحنان: الرحمة، أو أنّ الكلمة مشتقة من لفظة ((حنّا))، و((حنا)): دير نصراني قديم من أديرة الحيرة، كان في موضع المسجد عينه، وتطورت اللفظة من ((حنّا)) إلى ((حنانة)) بمرور الزمن، ودير حنّا قد بناه المنذر الأول بن النعمان الأول الذي حكم بين ٤١٨ ــ ٤٦٢م، وكان ديرا عظيماً في أيامه.

(١) محبوبة: ج١ / ص: ٢٤٨ ــ ٢٤٩.

(٢) راجع البراقي، حسين: تاريخ الكوفة، ص: ١٤٤.

www.noormags.ir

وستين سنة قمرية[١]، ارتفعت الصيحة في داره من بناته ونسائه، فعلم أهل الكوفة؛ فأقبل الرجال والنساء يهرعون أفواجاً أفواجاً وصاحوا صيحة عظيمة، فارتجت الكوفة بأهلها وكثر البكاء والنحيب وكثر الضجيج بالكوفة وقبائلها ودورها وجميع أقطارها كما هو الحال عند وفاة النبيّ (ص)[٢]، ويذكر الشيخ المفيد في (الإرشاد) ((تولى غسله وتكفينه ابناه الحسن والحسين(عليهما السلام)))[٣] وقال الطبري: ((غسّله ابناه الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر، وكفن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص، وكبّر عليه الحسن تسع تكبيرات))[٤]، وينقل السيد محسن الأمين في (أعيانه): ((وقال أبو الفرج: غسّله الحسن وعبد الله بن عباس، وقال ابن الأثير: عبد الله بن جعفر مكان عبد الله بن عباس، وكفن في ثلاثة أثواب بيض ليس فيها قميص ولا عمامة...))[٥]، ويقول ابن أعثم: ((فغسّله الحسن والحسين، ومحمّد بن الحنفية يصبّ على أيديهما الماء ثم كفّن...))[٦].

المهم غسله الإمامان الحسن والحسين (عليهما السلام) وربّما تناوب على مساعدتهما ابنه محمّد بن الحنفية وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عباس، فلا بدّ أنهم كانوا مجتمعين، ثم كفن وكبّر عليه الإمام الحسن(عليه السلام)، وتختلف الروايات حول عدد التكبيرات أيضاً.

ولكن من أين جاءت بعض الاحتمالات الضعيفة حول مكان قبره الشريف والثابت بلا أدنى ريب أنّ موقعه في ((الغري)) حيث مشهده اليوم في النجف الأشرف؟ فلا يمكن لنا أن نعبر الموضوع دون التطرّق إلى هذه الاحتمالات ودحضها إلا إذا عبرنا النجف كلّها، فلا نجف بدون قبر الإمام، لأنّ القبر بحضرة الإمام هو شرفها وسرّ بقائها وعنوان شموخها، به طاولت الأيّام، وتحدت الزمان، بل لو اهتمت الحكومات العراقية بالمشاهد المقدسة في العراق عمرانياً

---

(١) ولد الإمام علي (عليه السلام) في السنة الثلاثين بعد عام الفيل ٦٠٠م في يوم الجمعة ١٣ رجب وذلك في البيت الحرام، ولم يولد قبله ولا بعده مولود في بيت الله تعالى سواه، وأبوه اسمه عبد مناف وكنيته أبو طالب، ويدل على أنّ اسم أبي طالب ((عبد مناف))، أنّ أباه عبد المطلب لما أوصاه بالنبي قال:

أوصيك يا عبد مناف بعدي بموحد بعد أبيه فرد

راجع أعيان الشيعة، م١ / ص: ٣٢٣، وقيل توفي الإمام ليلة الأحد كما في شرح ابن أبي الحديد ومقاتل الطالبيين ومروج الذهب.

(٢) أعيان الشيعة: م١ / ص: ٥٣٠.

(٣) الشيخ المفيد: الإرشاد، ص: ١٢، الأعلمي ـ بيروت ١٩٧٩م.

(٤) الطبري: ج٥ / ص: ١٤٨.

(٥) أعيان الشيعة: م١ / ص: ٥٣٠، دار التعارف ـ بيروت ١٩٨٣م.

(٦) ابن أعثم: فتوح البلدان، م١ / ص: ٥٠٩.

www.noormags.ir

وسياحياً من حيث توفير المستلزمات الخدمية والاجتماعية، وتسهيل إقامة الزوار والسياح وتشجيع بناء صروح العلم والدراسة لدرّت هذه الأعمال من الخيرات على العراق ما يوازي ثروته الزراعية أو المعدنية. ولا يختلف اثنان أنّ الكثير من بلدان العالم كـ(أسبانيا والمغرب مثلاً) تعتمد تماماً على الصناعة السياحية ولا يوجد فيها من المراقد المقدسة التي يلتزم بزيارتها ورعايتها أكثر من ثلاثمائة مليون مسلم، ولكن لا حياة لمن تنادي.

يخبرنا التأريخ ـ والشيء بالشيء يذكر ـ عن مدى اهتمام القدماء بالنجف، لما جرت المفاوضات التي دارت بين الشاه عباس الصفوي وبين حافظ أحمد الوزير العثماني «اقترح إعطاء» بغداد إلى الإيرانيين وما عداها من العراق إلى الترك فلم يقبل الترك، ثم تنازل الشاه الإيراني وطلب أن يعطى النجف وما عداها يكون للترك، فأجاب الوزير التركي قائلاً: إنّ كلّ حجر من النجف يعادل عنده ألف إنسان، وما بغداد إلا حماها[١].

والسؤال الّذي يطرح نفسه هل من المعقول أن يدرك الأجانب أهمية المراقد المقدسة في وطننا الحبيب أكثر من العراقيين أنفسهم؟ ونحن بدورنا نطرح هذا السؤال على السلطات المتعاقبة على حكم العراق من جيلنا حتى الأجيال الآتية بمشيئة الله، فهل من مجيب؟ نرجع إلى موضوعنا حيث جرّنا القلم من قبر الإمام أهمية النجف الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياحية بشكل خاطف، ونذكر النقاط التالية:

١ ـ لقد وضعت بعض الآراء والأخبار غير الدقيقة عدّة احتمالات لمكان قبر الإمام (عليه السلام) حيث تقول دائرة المعارف الإسلامية (طبعتها الإنكليزية): ((أمّا أن الإمام دفن في الكوفة نفسها في الزاوية القبلية للمسجد، أو على بعد فرسخين من الكوفة (أي في النجف)، أو أنّه نقل ليدفن بالقرب من قبر فاطمة، والرواية الرابعة تجعل قبره في قصر الإمارة))[٢]. نقول: هذه الروايات ـ كما دونت دائرة المعارف نفسها مصادرها ـ رجعنا إليها وإلى غيرها فوجدنا ((إنّ الاصطخري وابن حوقل ذكر أنّ قبر علي في أيامهما كان في زاوية جامع الكوفة الكبير، وقد أيّد ذلك كثير من الثقات، وعزّزه غيرهم من المصنفين))[٣] هذا ما دون (لسترنج) في كتابه ((بلدان الخلافة الشرقية))، فرجعنا للاصطخري فوجدنا أنه ذكر ((وقريب من الكوفة قبر علي

(١) راجع ستيفن لونكريك: أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، ص: ٨٤ ــ ٨٥ طبعة قم، الحادثة وقعت في حزيران ١٠٣٦هـ / ١٦٢٦م.

(٢) راجع The Ency of Islam, Vol. VII, Page: 860.

(٣) لسترنج، كي: بلدان الخلافة الشرقية، ص: ١٠٤.

www.noormags.ir

(عليه السلام)، وقد اختلف في مكانه؛ فقيل إنّه في زاوية على باب جامع الكوفة، ورأيت في هذا الموضع دكان علاف. (!!) ومنهم من زعم (!!) أنّه من الكوفة على فرسخين وعليه قناطر وآثار مقابر...))[١].

أما ابن حوقل ـ وهو ممّن عاصر الاصطخري[٢] ـ فنقول ابن حوقل يقول: ((بالكوفة قبر أمير المؤمنين علي صلوات الله عليه، ويقال أنّه بموضع يلي زاوية جامعها، وأخفي من أجل بني أمية خوفاً عليه، وفي هذا الموضع دكان علّاف() ويزعم أكثر ولده(!!) أنّ قبره بالمكان الّذي ظهر فيه قبره على فرسخين من الكوفة))[٣]. ويذهب ابن سعد في إحدى رواياته بقوله((ودفن بالكوفة عند مسجد الجامعة في قصر الإمارة))[٤]. والمسعودي أيضاً لا يدري، فيذكر التنازع حول مكان دفنه، أما في مسجد الكوفة، أو أنّه حمل إلى المدينة فدفن قرب قبر فاطمة، أو أنّه حمل في تابوت على جمل[٥]، ومرّة يقول في عبارة منفردة أنّه دفن بالرحبة عند مسجد الكوفة[٦].

ممّا تقدم يتضح لنا أنّ الآراء مضطربة غير مستقرة على خبر أكيد، تذهب شمالاً ويميناً، ولا يجمع الأخبار السابقة، والتي سنوردها لاحقاً، سوى (الغري) حيث موضع مرقده الشريف في يومنا الحاضر بالنجف، ولو كان هنالك أدنى شك لوجود قبره في بقعة ما لشاهدت عدّة مشاهد يتبرك بها الناس، كما هو الحال بالنسبة للسيّدة زينب (عليها السلام) وهي أقل مقاماً من أبيها، وكذلك بالنسبة لرأس الإمام الحسين (عليه السلام)، ولما بقي هذا العلاّف في دكانه، ولا لقصر الإمارة أن يطويه الزمان.

وذكر الاصطخري وابن حوقل أنّ قبر الإمام (عليه السلام) قد ظهر في النجف، وكلا الرجلين قد عاصرا البويهيين والحمدانيين، وهم ممّن اهتموا كثيراً بقبر الإمام، ولا بدّ أنّهم تيقنوا تماماً من صحة موقع القبر في النجف الأشرف، بل قد دفن جلّ أولاد أبي الهيجاء (عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة) في النجف، وكذلك دفن أغلب ملوك البويهيين في النجف وأشهرهم عضد الدولة البويهي (ت ٣٧٢هـ / ٩٨٢م)؛ ولكن من أين جاءت هذه الاحتمالات،

---

(١) الاصطخري: المسالك والممالك، ص: ٥٨.

(٢) الاصطخري توفي ٣٤٦هـ / ٩٥٧م، وتوفي ابن حوقل ٣٦٧هـ / ٩٧٧م.

(٣) ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، ص: ١٦٣.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٦ / ص: ٩١، طبعة ليده سنة ١٩٣٨م.

(٥) المسعودي: مروج الذهب، م٢ / ص: ٣٥٢، دار العلم ـ بيروت ١٩٨٩م.

(٦) المصدر السابق، ص: ٤٠٧.

www.noormags.ir

وكيف وردت هذه الروايات؟

٢ ـ إن الاحتمالات الواردة في الفقرة السابقة مصدرها كما يذكر ابن طاووس: ((إنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) أمر ابنه الحسن أن يحفر له أربعة قبور في أربعة مواضع: في المسجد، وفي الرحبة (قرب منزله)، وفي الغري، وفي دار جعدة بن هبيرة، وإنّما أراد بهذا أن لا يعلم أحد من أعدائه موضع قبره (عليه السلام)))[١]. وينقل السيّد محسن الأمين في (أعيانه): ((وحكى ابن أبي الحديد في شرح النهج عن أبي القاسم البلخي أنّه قال إنّ علياً (عليه السلام) لما قتل قصد بنوه أن يخفوا قبره خوفاً من بني أمية أن يحدثوا في قبره حدثاً فأوهموا الناس في موضع قبره تلك الليلة وهي ليلة دفنه))[٢].

ويؤكد الشيخ المفيد أن الحسن والحسين ((بأمره حملاه إلى الغري من نجف الكوفة فدفناه هناك وعفيا موضع قبره بوصية كانت منه))[٣] خوفاً أن يعلم به أعداؤه وأعوانهم فينبشوه مما يحمل أهله ومحبيه على ((المحاربة والمشاقة التي أغضى عنها (عليه السلام) في حالة حياته، فكيف لا يرضى بترك ما فيه مادة النزاع بعد وفاته؟))[٤].

فإذن العمل كان مقصوداً بأمر الإمام نفسه، وذلك للتمويه، وعدم جعل القبر مادة للنزاع والحروب والاقتتال بين أهله ومحبيه من جهة، وأعدائه ومناوئيه من جهة أخرى، وكان له ما أراد، ومن هنا تعددت الروايات ووضعت الاحتمالات ممّن يعرف الحقيقة وسرّ أهل البيت.

٣ ـ ولكن أهل البيت (عليهم السلام): يعرفون حق المعرفة مكان قبره الشريف، إذ يروى عن الإمام الحسن (عليه السلام) ((خرجنا إلى الظهر بجنب الغري))[٥] قريباً من النجف يسرة عن الغري، يمنة عن الحيرة، فدفن بين ذكوات[٦] بيض وذلك ((قبل طلوع الفجر، ودخل قبره الحسن والحسين ومحمّد بنو علي (عليهم السلام) وعبد الله بن جعفر (رضي الله عنه))[٧]. و((قال أبو عبد الله الصادق (عليه السلام): إنّك إذا أتيت الغري رأيت قبراً كبيراً وقبراً صغيراً،

---

(١) ابن طاووس: فرحة الغري، ص: ٣٢.

(٢) أعيان الشيعة: م١ / ص: ٥٣٤.

(٣) الشيخ المفيد: الإرشاد، ص: ١٢.

(٤) ابن طاووس: فرحة الغري، ص: ٢٥.

(٥) الاصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص: ٤٢، دار الإحياء ـ القاهرة ١٩٤٩م.

(٦) الذكوة في اللغة: الجمرة الملتهبة، ويمكن أن يكون المراد بها التلال الصغيرة المحيطة بقبر الإمام علي (عليه السلام).

(٧) الشيخ المفيد: الإرشاد، ص: ١٩، من رواية عن الإمام الباقر (عليه السلام).

www.noormags.ir

فأما الكبير فقبر أمير المؤمنين، وأما الصغير فرأس الحسين بن علي (عليه السلام))[١]. وهنالك أحاديث مأثورة عن الإمام الصادق (عليه السلام) أيضاً: أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) قد دفن بين ذكوات بيض بعد اجتياز الثوية والقائم المائل نحو النجف، وهي التلال الصغيرة المحيطة بقبره الشريف وعليها دور البلدة المقدسة اليوم، إحداها في شمال القبر الشريف وتعرف بجبل الديك، والثانية في جنوبه الشرقي وتعرف بجبل النور، والثالثة في جنوبه الغربي وعرفت أخيراً بجبل شرفشاه[٢].

٤ ـ على كل حال فإنّ جميع مصادر الشيعة تؤكد بشكل حاسم أنّ قبر أمير المؤمنين (عليه السلام) في النجف حيث مشهده اليوم، وتعتبر الأمر غير قابل للتأويل، ووضع الاحتمالات؛ لذلك يقول السيّد محسن الأمين في (أعيانه): ((أما الشيعة فمتفقون خلفاً عن سلف نقلاً عن أئمتهم أبناء أمير المؤمنين (عليهم السلام) أنّه لم يدفن إلا في الغري في الموضع المعروف الآن ووافقهم المحقّقون من علماء سائر المسلمين والأخبار فيه متواترة))[٣].

٥ ـ ومن هذه الأخبار المتواترة، يذكر كلّ من ابن أعثم الكوفي في (الفتوح): ((دفن في جوف الليل الغائر بالموضع الّذي يقال له الغري...))[٤]، والاصفهاني في (مقاتل الطالبيين): ((حتى خرجنا إلى الظهر بجنب الغري))[٥]، وابن الطقطقي في (الفخري): ((أما مدفن أمير المؤمنين (عليه السلام) فإنّه دفن ليلاً في الغري، ثم عفي قبره إلى أن ظهر حيث مشهده الآن))[٦]، وأبي الفداء في (المختصر) ((والأصح الّذي ارتضاه ابن الأثير وغيره أنّ قبره هو المشهور بالنجف وهو الّذي يزار اليوم))[٧]، وابن الوردي في (تتمة المختصر) ((والأصح الّذي ارتضاه ابن الأثير وغيره أنّه بالنجف))[٨]، أما ابن الأثير في (الكامل) فيقول ((والأصح أنّ قبره

---

(١) موسوعة العتبات المقدسة، ج٦ / ص: ٧٩.

(٢) جبل الديك: هو جبل مرتفع واقع شمال القبر الشريف ينسب إلى رجل يعرف بالديك، وكان لآل الديك محلة خاصة بهم، وكانت تعرف من قبل بمحلة عجرم. وجبل النور: هو أكمة مرتفعة تقع إلى جنوب المرقد الشريف وعليها مسجد ((آل الطريحي)) في محلة البراق. أما شرفشاه فيقع جنوب المرقد الشريف من جهة الغرب، وينسب إلى شرفشاه عزّ الدين أحد العلماء، وتقع عليه محلة العمّارة. راجع محبوبة: ج١ / ص: ٢٠ ـ ٢٥.

(٣) أعيان الشيعة، م١ / ص: ٥٣٥.

(٤) فتوح البلدان، ج١ / ص: ٥٠٩.

(٥) مقاتل الطالبيين، ص: ٤٢.

(٦) ابن الطقطقي، الفخري: ص: ٩٠، مطبعة المعارف ـ مصر، الطبعة الثانية.

(٧) أبو الفداء: المختصر، م١ / ص: ٩٣ (اللبناني).

(٨) ابن الوردي: تتمة المختصر، ج١ / ص: ٢٤٩.

www.noormags.ir

هو الموضع الّذي يزار ويتبركّ به))[١].

٦ ـ أردنا أن نعرض عن ذكر هذه الرواية الضعيفة والمحشورة بدون سند ولا أساس؛ ولكن ارتأينا أن لا ندع لآخر فيها مطمعاً، وقد ذكرتها بعض المصادر، فلا بدّ من الإشارة إليها والتعقيب عليها. ينقل ابن كثير في (البداية والنهاية) خبراً عن الخطيب البغدادي، وزاد فيه بما ينم عن عدم الدقة، والركون إلى العواطف، وهو ليس بحجة في هذا المجال أيضاً، لأنه من مؤرخي القرن الثامن الهجري (توفي سنة ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م)، والخبر يقول: ((أما قبر الإمام بمشهد النجف، فلا دليل على ذلك ولا أصل، ويقال إنما ذاك قبر المغيرة بن شعبة حكاه الخطيب البغدادي))[٢]. ورجعنا إلى (تاريخ بغداد) للخطيب، فوجدنا ترجمة للإمام من صفحة (١٣٣ ـ ١٣٨) (الجزء الأول)، وفي نهاية الترجمة تماماً يذكر رواية ضعيفة عابرة لا دليل لها ولا أصل(!) يقال: ((هذا قبر المغيرة بن شعبة))[٣]، ولما قلبنا الصفحات ووصلنا إلى الصفحة (١٩٣) تعجبنا أن الخطيب نفسه يقول وبشكل قاطع: ((سنة ٥٠ فيها مات المغيرة بن شعبة ودفن بالكوفة بموضع يقال له الثوية))[٤] ولما تحققنا من (معجم البلدان) للحموي و(تاج العروس) للزبيدي و(لسان العرب) لأبن منظور و(النهاية في غريب الحديث والاثر) لأبن الأثير الجزري، تأكد أنها جميعا تذكر ان قبري أبي موسى الاشعري والمغيرة بن شعبة في الثوية[٥] أي بالقرب من ((الحنانة))، وقد ذكرنا ذلك سابقاً ولله في خلقه شؤون!.

الأطوار المبكرة للنجف الأشرف:

النجف ليست مدينة كبقية المدن، قامت بين ليلة وضحاها بأمر من خليفة، أو طلب من سلطان، أو تلبية لحاجات مادية؛ بل مرّت بمخاض طويل في رحم الأيام والأعوام، فترات مد وسنوات جزر، تقبل إليها الدنيا إن سنحت الفرصة لها، وتهجرها كرهاً إن ضغط عليها ولاة أمر السياسة، نشأت وترعرعت بين عشق الناس، وولائهم للإمام المرتضى (عليه السلام)

---

(١) ابن الأثير: ج٣ / ص: ٢٦١ (العلمية).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، م٤ / ج٧/ ص: ٢٦٣ (العلمية).

(٣) المصدر السابق ص١٩٣.

(٤) راجع: ((معجم البلدان)) للحموي، ج٢ / ص: ١٠٢. ((تاج العروس)) للزبيدي، م ١٠، ص: ٦٤. ((لسان العرب)) لابن منظور، ج١٤ / ص: ١٢٧. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن أثير الجزري، ج١ / ص: ٢٣١.

(٥) راجع الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج١ / ص: ١٣٨. توفي الخطيب البغدادي ٤٦٣هـ ١٠٧٢م، وبعد ذكر عدة روايات يقحم هذه الرواية بشكل عابر.

www.noormags.ir

وتوسعت من فيض أجوائه الروحية، ولو أن محبوبة قد ذكر في كتابه ((ماضي النجف وحاضرها))، أنّ النجف كانت مأهولة ومعمورة، وكانت الحضارة قائمة بها على أسس عربية في عهد الملوك اللخميين يوم كانت الحيرة عاصمة لهم[١]. أما نحن فلا نرى غير الديارات التي كانت منتشرة على أرض النجف، ورحلات الصيد والتنزه للملوك الساسانيين وأقيالهم اللخميين والخلفاء والأمراء والقادة في العصور الإسلامية من بعد، لما يتمتع به النجف من مناخ طيب وهواء نقي، وإطلالة جميلة على البساتين والنخيل من ناحية، وعلى الصحراء والرمال من ناحية أخرى.

يقول الشاعر المغني إسحاق بن إبراهيم الموصلي (ت عام ٢٣٥هـ / ٨٤٩م) يمدح الواثق ويذكر النجف واصفاً هواءه وتربته وموقعه بألطف العبارات وأدقها، وصدقه الواثق على وصفه البديع:

ما إن رأى الناسُ في سهل ولا جبلِ ... أصفى هواءً ولا أعذى من النجفِ[٢]

كأنّ ترتبه مسكٌ يفوح به ... أو عنبرٌ دافه العطار في صدفِ

حُفّت ببرّ وبحر من جوانبها ... فالبرّ في طرفٍ والبحر في طرفِ

وبين ذاك بساتين يسيح بها ... نهر يجيش بجاري سيله القصفِ

وما يزال نسيمٌ من أيامنه ... يأتيك منه بريّا روضة أُنُفِ[٣]

تلقاك منه قبيل الصبح رائحة ... تشفي السقيم إذا أشفى على التلفِ

لو حلّه مدنف يرجو الشفاء به ... إذاً شفاه من الأسقام والدَّنَفِ[٤]

ويذكرنا البيت الأخير بما قاله الجاحظ (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م) وهو من المعاصرين للموصلي في ((البيان والتبيين)): ((وهرب رجل من الطاعون إلى النجف أيام شريح[٥]،

---

(١) محبوبة: ج١ / ص: ١٦.

(٢) الأغاني، ج٥ / ص: ٣٥٦. ((لم ينزل الناس...)) أعذى: أطيب الهواء، ويقال عن المكان يعذو إذا طاب هواؤه، ومنه الأرض العذاة وهي الأرض البعيدة عن الاحساء والنزوز والريف، وما جاء في ((ماضي النجف وحاضرها)) أغذى لعلّه خطأ مطبعي.

(٣) الأغاني، ((نسيم من يمانية))، الروضة الأُنُف بضم الهمزة والنون: التي لم يرعها أحد.

(٤) الحموي: معجم البلدان، ج٥ / ص: ٢٧١. ((الأغاني)) للاصفهاني، ج٥ / ص: ٣٥٦.

(٥) شريح بن الحارث القاضي المشهور، استقضاه الخليفة عمر على الكوفة ثم عثمان وأقرّه الإمام علي (عليه السلام)، وولّاه زياد قضاء البصرة، توفي سنة ٧٢هـ، وشريح يتكلم بلسان عصره قبل اكتشاف الجراثيم والعدوى والحجر الصحّي، وإنّ للأمراض أسباباً يمكن دفعها بالوقاية والعلاج.

www.noormags.ir

فكتب إليه شريح: أما بعد، الفرار لن يبعد أجلاً ولن يكثر رزقاً، وإنّ المقام لن يقرب أجلاً ولن يقلّل رزقاً، وإنّ من بالنجف من ذي قدرة لقريب))[١].

ولهذا أيضاً إذا استبعدنا الأمور الغيبية. وقف الإمام علي (عليه السلام) يطل على ظهر الكوفة ـ وهو النجف ـ قائلاً: ((ما أحسن منظرك، وأطيب قعرك، اللّهمّ اجعل قبري بها..))، ولكن كان النجف ـ كموقع ـ يعوزه الماء، والماء هو الحياة دائماً، ولما حلّ بها من هو أغلى من الماء، وأعزّ من الماء، ورد إليه الماء سلسبيلاً زلالاً، طوع البنان، فشبت فيه الحياة وتنفست به الأرواح، والله على كل شيء قدير.

ومهما يكن من أمر فيعتبر ترصيص الحجر على قبر الإمام بمثابة وضع الحجر الأساسي لمدينة النجف الأشرف التي أصبحت تلتهم الحيرة، وتهيمن على الكوفة، وتقدس كرابع مدينة في العالم الإسلامي بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف. ولكن كيف أصبحت هكذا؟ وكيف تطورت وسط هذه الأجواء المضطربة في عالم يتطلع إلى التسلط وينشد اللذة، ويكره المعارضة وكلّ رمز يستقطبها ويؤجج جذوتها...؟ تعال معي أيّها القارئ الكريم نتصفح ما توفر لدينا من أخبار، والبحث غير مستكمل، ونحن نجهد أنفسنا قدر المستطاع للكتابة عن تاريخ النجف الأشرف من بداية بزوغ الحيرة حتى يومنا هذا، والله المستعان على صالح الأعمال.

الأمويون شأنهم شأن بني العباس، حاولوا جاهدين إخفاء معالم قبر الإمام ـ كما أراد له صاحبه ـ فبثوا الرواياتُ المتعددة حول مدفنه لتشتيت مركز الاستقطاب وإطفاء جذوة الاشتعال، وسحق بؤرة الثورات، ولكن أنّى لهم ذلك فالنفوس الكبيرة والأرواح العظيمة لا تضمها اللحود، ولا تطمرها القبور، بل تبقى خالدة على مرّ العصور، تتناقلها الدماء من جيل إلى جيل، تنمو سريعاً وتتكاثر اطراداً، شأنها شأن الأحياء، فإنّ خبر مدفنه ومكان لحده، أخذت الألسن تتناقله والأرجل تسعى له، والنفوس تهفو إليه حتى أصبح مزاراً وملاذاً ومأوى لجميع المؤمنين المستضعفين.

يحدثنا التاريخ أنّ العلويين والمحبين لأهل البيت والمشايعين لهم كانوا يزورون القبر[٢]، وربّما يجاهرون إذا اقتضى الأمر، ففي أحداث السنة السابعة والستين للهجرة (٦٨٦م) يذكر

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، ج٢ / ص: ٢٠٣.

(٢) تذكر الدكتورة الليثي في ((جهاد الشيعة)) ص: ١٩٤، الهامش: ((كان العلويون يعرفون مكان قبر عليّ ولكنهم أخفوه عن بني أميّة)) وكذلك راجع محمّد علي دخيل: ((نجفيات))، ص: ٢٠.

www.noormags.ir

الطبري: ((عن سويد بن غفلة قال: بينما أنا أسير بظهر الكوفة إذ لحقني رجل فطعنني بمخصرة من خلفي، فالتفتُ إليه فقال: ما قولك في الشيخ؟ قلتُ: أيّ الشيوخ؟)(قال: علي بن أبي طالب، قلتُ: أنّي أشهد أني أحبّه بسمعي وبصري وقلبي ولساني...))[١].

وهذا الخبر ينطوي على أمرين مهمين، أولهما: أنّ قبر الإمام كان يزار سرّاً، وإذا اقتضى الأمر يعلن عن الزيارة والولاء بجرأة. وثانيهما: كانت هناك حراسة سرية تراقب الزوار وتتعقبهم لتسجل الغاية من الوجود في مثل هذا المكان، واستمر حال التعتيم على موضع القبر، وملاحقة زواره حتى قيام الخلافة العباسية عام ١٣٢هـ / ٧٥٠م.

النجف في العصر العباسي الأول:

على ما يبدو لنا كان العباسيون والعلويون مهتمين لتأطير ضريح الإمام (عليه السلام) والالتفاف حوله كمركز لمواصلة دعوتهم واستقرار حكمهم، ولكن الخلافات التي نشبت بين العلويين والعباسيين وسيطرة بني العباس جعل المشروع طي الإهمال خشية من إعطاء أبناء علي أحقية في الخلافة، ففي الوقت الّذي تذكر فيه الدكتورة سميرة الليثي: ((كانت أول زيارة للإمام جعفر الصادق للعراق في عهد الخليفة العباسي الأول أبي العباس السفاح، وقد توصل خلال هذه الزيارة إلى معرفة مكان قبر علي بن أبي طالب في النجف))[٢]. ويؤكد الشرقي أنّ ((ظهور القبر كان لأول مرّة في أيام الصادق (عليه السلام) وبأمر منه، ففي رواية صفوان يقول: بعد أن دلّهم الإمام الصادق (عليه السلام) على موضع القبر الشريف: قلتُ: يا سيدي أتأذن لي أن أخبر أصحابنا من أهل الكوفة؟ قال: نعم. وأعطاني الدراهم وأصلحتُ القبر. ثم عفي القبر بسبب السيول الجارفة، وبقي حتى أيام داود بن علي العباسي المتوفى ١٣٣هـ / ٧٥٠م، حيث أصلحه وعمل عليه صندوقاً، ثم عفي القبر الشريف مرّة ثانية حتّى أيام هارون الرشيد العباسي حيث بنى القبر الشريف وشاد عليه قبة سنة ١٧٠ هـ/٧٨٦م))[٣].

ومن وجهة نظرنا أن الرواية التي نقلها الشرقي عن الفضلي غير دقيقة من عدّة وجوه، لا وجه واحد، إذ أنّ الامام الصادق (عليه السلام) زار الكوفة في بداية العصر العباسي في زمن أبي العباس السفاح، وفي السنة نفسها توفي داود بن علي العباسي وهو عم أبي العباس السفاح

---

(١) الطبري: ج٦ / ص: ١١٣ ــ ١١٤.

(٢) د. الليثي: جهاد الشيعة، ص: ١٩٤، نقلاً عن المظفر، محمّد حسين: الإمام الصادق، ج٢ / ص: ١٣٧.

(٣) الشرقي، طالب: النجف الأشرف... عاداتها.. تاريخها، ص: ١٨، نقلاً عن الفضلي، عبد الهادي: دليل النجف الأشرف، ص: ٢٣.

www.noormags.ir

سنة ١٣٣ هـ، فما هذه العمارة التي تهدم وقت بنائها، وكيف وصلت السيول الجارفة إلى النجف؟ والنجف كما ذكرنا أرض مرتفعة كالمسناة تصد الماء فلا يعلوها؟ ثمّ أنّ كلمة ((وأصلحت القبر)) تدل علىٰ أنّ القبر كان قائماً قبل الإمام الصادق (عليه السلام)، فكيف دلّهم عليه؟! أما متى شيّد هارون الرشيد القبّة؟ فلنا معه وقفة تحليلية بعد عدة صفحات.

نحن نعتقد أنّ هناك توافقاً زمنياً بين مجيء الإمام الصادق (عليه السلام) إلى الكوفة، إذ أمر ببناء القبر على حدّ رواية صفوان[١]، وعمل الصندوق من قبل داود بن علي العباسي، فهما مشروع واحد تمّ في السنة نفسها، ثمّ هدم عمداً من قبل العباسيين لا بسبب السيول، ففي الوقت الّذي تسالم فيه المؤرخون، وعلى رأسهم الشيخ محمّد بن الحسن الشهير بالديلمي، والنسابة الشهير صاحب ((عمدة الطالب)) والسيّد ابن طاووس صاحب ((فرحة الغري))، أنّ أول مَن وضع صندوقاً على قبر أمير المؤمنين علي (عليه السلام) هو داود بن علي العباسي[٢] المتوفى ١٣٣هـ / ٧٥٠م بعد أن كان قبره مخفياً[٣].

نقول: في هذا الوقت ينتقل أبو العباس السفاح من الكوفة، المدينة الموالية للعلويين، إلى الأنبار على نهر الفرات، وأقام بها قصراً فخماً سماه ((الهاشمية))[٤]، ومن بعده يتخذ أبو جعفر المنصور ((بغداد)) عاصمة له، ليبتعدا عن الكوفة وشيعتها، وليهملا قبر الإمام في ظهرها بالنجف عن عمد ومعرفة بمكانته، وأهميته الدينية والدنيوية للمسلمين قاطبة.

من الضروري أن نذكر خبرين نراهما مهمين لبحثنا عن النجف يوردهما الطبري في تاريخه، أولهما في أحداث السنة الرابعة والأربعين بعد المائة يقول فيه: ((لما قدم بعبد الله بن حسن وأهله مقيدين، فأشرف بهم على النجف، قال لأهله: أما ترون في هذه القرية مَن يمنعنا من هذا الطاغية. قال: فلقيه ابنا أخي الحسن وعلي مشتملين على سيفين، فقالا له: قد جئناك يا

---

(١) نقل الشيخ محمد جواد الفقيه في موسوعة النجف الأشرف، ج/٦ ص: ٣٥ رواية صفوان نفسها.

(٢) كان هذا الرجل ((داود بن عليّ)) ــ على ما نرجح ــ متعاطفاً مع العلويين، أو أقل عداءً لهم إن شئت، وأكثر تنكيلاً بالأمويين، فهو الّذي قدم بصحبة وفد علوي برئاسة عبد الله بن الحسن بن الحسن وأخيه الحسن إلى الأنبار، فاستقبل أبو العباس وأبو جعفر الوفد بالحفاوة والتكريم وأنزلاه في دار الرحبة ((د.الليثي: ص: ٨١ نقلاً عن الخطيب البغدادي، ج٧ / ص: ٢٧١)). ولا ريب أنّ هذا الموقف كان ينطوي على حنكة سياسية تقتضيها الظروف للاتقضاض على محمّد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن.

(٣) الخاقاني: شعراء الغري، ج١ / ص: ١٠ــ ١٢.

(٤) د. الليثي، ص: ٧٨.

www.noormags.ir

بن رسول الله فمرنا بالّذي تريد، قال: قضيتما ولن تغنيا في هؤلاء شيئا فانصرفا...))[١]. فهذا الخبر يدل دلالة واضحة على أنّ النجف كانت قرية مأهولة قليلاً بالسكان من العلويين، ولا بدّ أنّه كان هناك معلم للقبر على شكل من الأشكال، وعناية به.

ويكرر الطبري في أحداث السنة الخامسة والأربعين بعد المائة خبراً يروى عن ابن أبي المكارم: ((قال: بعثني عيسى برأس محمّد (يقصد النفس الزكية) وبعث معي مائة من الجند، قال: فجئنا حتى إذا أشرفنا على النجف كبّرنا...))[٢].

والسؤال الّذي يطرح نفسه هنا لماذا هذا التكبير على النجف لو لا أهميته في وجدان الناس وقداسته في نفوسهم، ومن أين أتت هذه الأهمية أو القداسة لولا وجود قبر الإمام ومعرفة الناس أنّى مرقده الشريف تحديدا؟

ويحدث تطور ملفت للنظر في عهد الرشيد (حكم بين سنة ١٧٠ ـ ١٩٣هـ) إذ يقوم بتعمير القبة على المرقد الشريف، وتوجد بعض الروايات ترجع فعل الرشيد لدواع غيبية أثناء رحلة صيد إلى ظهر الكوفة، وتعني النجف، حيث كانت الفهود أو الكلاب والصقور تقف عند مكان محدّد ولا تتقدم عليه، فيتعجب الرشيد ويتساءل عن السبب، فيخبره أحد شيوخ الكوفة أنّ بهذا المكان قبر الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)[٣]، فيأمر الرشيد ببناء القبة.

ونحن لا نميل لهذه الرواية بالرغم من شهرتها وقربها من الوجدان الشعبي والعقلية الدينية، لا من حيث مدى الإيمان بالفلسفة الإلهية، وكرامات الأولياء، بل كيف يعقل أنّ خليفة بحجم هارون الرشيد الّذي يفرض هيمنته من بحر الظلمات حتى أبواب الصين يجهل قبر شخصية لها قدسيتها الإسلامية الرفيعة كشخصية الإمام (عليه السلام) الّذي عمّ البرية كلّها، بل وممّن قامت الخلافة العباسية نفسها باسمه؟

على كل حال نحن لا نميل إلى رواية الصيد بفهودها وصقورها، إلا إذا كانت مصطنعة من الرشيد نفسه بهدف بناء القبة وامتصاص النقمة ـ كما سنذكر ـ ولكن نحن نعتقد بصحة الرواية الثانية التي يذكرها صاحب ((فرحة الغري)) في الصفحة نفسها التي ذكر بها الرواية السابقة عن الخليفة هارون الرشيد، ولا أعرف لماذا لم يركز عليها المؤرخون، في حين أنّها أقرب إلى العقل والمنطق والتحليل العلمي؟ وتقول الرواية: إنّ الرشيد خرج ليلاً إلى القبر

(١) الطبري: ج٧ / ص: ٥٤٦.

(٢) المصدر السابق، ص: ٦٠١.

(٣) راجع ابن طاووس: فرحة الغري، ص: ١١٩. محبوبة: ج١ / ص: ٤١. دخيل: نجفيات، ص: ٢٠، وغيرها.

www.noormags.ir

الشريف، ومعه علي بن عيسى الهاشمي، وأبعد أصحابه عنه، وقام يصلّي عند الكثيب ويبكي ويقول: والله يا بن عم إنّي لأعرف حقّك، ولا أنكر فضلك، ولكن ولدك يخرجون عليّ ويقصدون قتلي وسلب ملكي، واستمر على تلك الحالة إلى أن قرب الفجر، فصلّى صلاة الصبح عند القبر، وأمر فبني عليه قبّة وأخذ الناس في زيارته ودفن موتاهم حوله[١].

على ما يبدو أنّ الرشيد كان يحب الإمام علياً (عليه السلام) صدقاً، ويكره أبناءه الثائرين عليه غيظاً، لذا قد انتهج ((سياستين متغايرتين نحو العلويين وشيعتهم))[٢] ففي الوقت الّذي يزعم فيه أنّه أكثر الناس حبّاً للإمام علي (عليه السلام)، فقد روى السيوطي ((أنّ الرشيد قال في مجلس من مجالسه: بلغني أنّ العامة يظنون فيّ بغض علي بن أبي طالب، والله ما أحب أحداً حبّي له، ولكن هؤلاء أشد الناس بغضاً لنا وطعناً علينا وسعياً إلى فساد ملكنا، بعد أن أخذنا بثأرهم، ومساهمتنا إياهم ما حويناه، حتّى إنّهم لأميل إلى بني أمية منهم إلينا، فأما ولده لصلبه فهم سادة الأهل، والسابقون إلى الفضل))[٣]. نقول في الوقت نفسه ـ ونحن قد نصدق حبّ الرشيد الخالص للإمام علي (عليه السلام) ـ نراه يقضي على حركتي يحيى وإدريس ابني عبد الله ويتعقبهم شرقاً وغرباً، وينتقم من الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) بوضعه في السجن، ويضطهد زعماء العلويين[٤]، لذلك نحن نرجح أنّ بناء القبة قد تم في سنة ١٨٠هـ لا في سنة ١٧٠هـ كما يذكر أغلب المؤرخين والباحثين[٥]، والفرق بين التاريخين هو الموقف، هل كان البناء طوعاً أم كرهاً، وهل دوافعه عفوية أم بتخطيط مسبق لامتصاص نقمة العلويين وأنصارهم وشيعتهم، ولإقناع عامة الناس بسياسته السمحاء ودماثة خلقه، وورعه لدينه؟ والرشيد استطاع أن يجمع النقيضين، فكان توازنه على كفتي منهج الأضداد، ترهيب وترغيب،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) د. الليثي: جهاد الشيعة، ص: ٣٠٣.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص: ٢٩٣.

(٤) راجع المصادر القديمة لأحداث سنة ١٧٦هـ / ٧٨٠م. وكذلك الليثي، ص: ٢٧٩ ـ ٣٠٦.

(٥) راجع البهادلي، علي: النجف وجامعتها، ص: ٢٧ نقلاً عن المظفر: تاريخ الشيعة، ص: ٢٤٣. الخاقاني: شعراء الغري، ج١ / ص: ١٠ ـ ١٢. الشرقي، طالب: النجف الأشرف، ص: ١٨ نقلاً عن الفضلي، عبد الهادي: دليل النجف الأشرف، ص: ٢٣. د. محمّد بحر العلوم يعتمد التاريخ ١٧٠ هـ ((مجلة الموسم)) العدد ١٨، ص: ٩٣. محبوبة: ماضي النجف وحاضرها، ص: ٤١. أما الهامش (وبعد سنة ١٨٠هـ جاوره الناس، وينقل عن ((نزهة القلوب)) لحمد الله المستوفي ص: ١٣٤ (إنّها كانت في حدود ١٧٠هـ) ولكن يذكر محمّد جواد الفقيه في ((موسوعة النجف الأشرف)) ج٦ / ص: ٣٥ ((إنّ بناية الرشيد في سنة ١٨٠هـ...)) وهي الأصح حسب وجهة نظرنا.

www.noormags.ir

قسوة ورحمة، حج وغزو، لهو وزهد، مجون وورع، حب وعداء، شدة ولين، وبالتالي دنيا ودين، وربما تصدر أفعاله عن عفوية مطلقة، أو تخضع لتخطيط مسبق عن إرادة واعية، إنّها أعمال الكبار تصدر من موقع القوة والاقتدار ولا تسأل عن السبب. لذلك اختلف الناس حوله بين مَن يرفعه إلى السماء وبين مَن يهبط به إلى الحضيض، وهذه من خصائص العباقرة العظام، ولا شكّ أنّ الرشيد واحد منهم، فهو الأكثر شهرة من بين كل الخلفاء العباسيين.

ونترك الرشيد لنتوجه إلى المأمون، إذ الأمين قد انشغل باللهو والمجون والغلمان والغلاميات، وأخيراً بالحرب الداخلية التي قضت عليه خلعاً وقتلاً على يد طاهر بن الحسين سنة ١٩٨هـ / ٨١٣م، فلم يلتفت إلى أمر مقابر ومشاهد أهل البيت، ولا إلى أمر العلويين قاطبة.

ليس غريباً أن يتجاهل المأمون قبر الإمام علي (عليه السلام)، ومرقده الشريف إبان فترة حكمه التي استمرت ١٩٨ ـ ٢١٨هـ، عقبى ثورة ابن طباطبا[١] وأبي السرايا[٢]، ومقتل مائتي ألف رجل بعد التفاف أهل الكوفة حولهما، وكادت هذه الثورة التي استمرت من أواخر جمادى الأخرى ١٩٩هـ إلى ربيع الثاني ٢٠٠هـ[٣] أن تودي بالخلافة العباسية لولا حنكة ودهاء هرثمة بن أعين، إذ قضى عليها بعد عشرة أشهر من اندلاعها. وما فتئت الكوفة توالي أهل بيت النبي (عليهم السلام) وتناصرهم، فقامت الحركة الثانية فيها سنة ٢٠٢هـ / ٨١٧م، وتولى قيادتها العسكرية أبو عبد الله أخو أبي السرايا، والزعامة الدينية علي بن محمّد بن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) وكان والي الكوفة العباس بن الإمام موسى الكاظم (عليه السلام)، فقال أهل الكوفة لواليهم العلوي العباسي: ((إن كنت تدعو للمأمون ثم من بعده لأخيك ـ أي الإمام الرضا ـ فلا حاجة لنا في دعوتك، وإن كنت تدعو إلى أخيك أو بعض أهل بيتك أو إلى نفسك أجبناك))[٤].

فهل نتوقع من بعد هذا أن يقوم المأمون بتشييد بؤرة للثورة عليه وعلى خلافته، ويوجه الأنظار من العباسيين إلى العلويين، وتجربة الإمام الرضا(عليه السلام) ما زالت ماثلة أمام

---

(١) ابن طباطبا: هو محمّد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وجميع السادة الطباطبائيين ينتسبون إليه.

(٢) أبو السرايا: هو السري ابن منصور من بني ربيعة بن ذهل بن شيبان، ذكر الطبري، ج٧ / ص: ١٢٧ أنّه من ولد هانئ بن قبيصة الشيباني.

(٣) راجع الطبري، ج٨ / ص: ٥. د. الليثي، ص: ٣١٨ ــ ٣٣٤.

(٤) الطبري، ج٨ / ص: ٥٦٠. د. الليثي، ص: ٣٦٧.

www.noormags.ir

عينيه؟ ليس المأمون من الخلفاء الضعفاء البسطاء سياسياً، فهو داهية كبير يحسب لكل أمر حسابه بدقة متناهية، أفعاله وأعماله كلّها مبنية على تخطيط عقلي مسبق، فهو يعرف ما يريد، أما دعاؤه ((بالرضا من آل محمّد))، وبيعته للإمام الرضا (عليه السلام) كولي للعهد، فهي حيلة لجأ إليها بعد صراعه مع أخيه الأمين مباشرة ليكسب ودّ العلويين والموالين لهم في خراسان، ويثبت أركان عرشه، وهذا ما حدث فعلاً، فإنّ المؤرخين سنّة وشيعة كادوا أن يجمعوا على أنّ الإمام الرضا (عليه السلام) مات مسموماً بعنب المأمون[١]. وبعد استشهاد الإمام خمدت الاضطرابات والفتن بين العباسيين في بغداد. ولا نريد بقولنا هذا أن ننفي عن المأمون عزمه وحلمه وكرمه وشجاعته وسماحته وعلمه وهيبته كما يدرجها المؤرخون، ولكن الصراع على السلطة يتجاوز كلّ هذه الصفات، فإنّ الملك لعقيم وإنّ الدنيا لغرور.

وتستمر النجف على هذا الخفوت في عهد المعتصم والواثق، وحتّى المتوكل طبْعاً لميولهم للأتراك طوعاً أو كرهاً، والاعتماد على عناصرهم في تسيير أمور الدولة، ولو أنّ الواثق بمدة خلافته القصيرة ٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ أبدى مرونة تجاه العلويين، ورفض أن يوصي بالخلافة لابنه فقال: ((لا أتحمل أمركم حياً وميتاً))[٢]، وكما قال صاحب الفخري: ((ولما ولي الواثق الخلافة أحسن إلى بني عمّه الطالبيين وبرّهم))[٣]. وعلى ما يبدو فإنّ الواثق كان يزور النجف، إذ يحدثنا صاحب ((الأغاني)) عن إسحاق الموصلي قال: ((ما وصلني أحد من الخلفاء بمثل ما وصلني به الواثق، ولقد انحدرتُ معه إلى النجف، فقلت له: يا أمير المؤمنين قد قلتُ في النجف قصيدة، فقال: هاتها، فأنشدته:

يا راكب العيس لا تعجلْ بنا وقفِ ... نحيي داراً لسعدى ثم ننصرفِ[٤]

وذكرنا القصيدة سابقاً.

النجف في العصر العباسي الثاني:

هذا العصر يبدأ منذ نفوذ الأتراك بشكل فعلي وسيطرتهم على مقاليد الحكم منذ أن تولى الخلافة المتوكل ٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ / ٨٤٦ ـ ٤٦١م، وفي عهده تمّ هدم قبر الإمام الحسين (عليه

---

(١) راجع الاصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص: ٥٦٦. وابن الطقطقي: الفخري، ص: ١٩٩. والمسعودي: مروج الذهب، ج٤ / ص: ٢٨. الطبري: ج٨ / ص: ٥٦٨. وكل كتب الشيعة تجمع على أنّه مات مسموماً بعنب المأمون.

(٢) د. الليثي: جهاد الشيعة، ص: ٣٨٩.

(٣) ابن الطقطقا: الفخري، ص: ٢٧٥.

(٤) الاصفهاني: الأغاني، ج٥ / ص: ٣٥٦ ـ ٣٥٧.

www.noormags.ir

السلام)، وهي الشعرة التي قصمت ظهر البعير، ففي أحداث سنة ست وثلاثين ومائتين ٢٣٦هـ / ٨٥٠م يورد الطبري وهو من معاصريها: ((وفيها أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي وهدم ما حوله من المنازل والدور، وأن يحرث ويبذر ويسقى موضع قبره، وأن يمنع الناس من إتيانه))[١].

ولكن ما هو السبب الموجب للقيام بهذا العمل الرهيب، بالرغم من أن المؤرخين عبروا عليه بمسحة البساطة والعفوية دون تعليق أو تحقيق سوى أبي الفرج الاصفهاني وهو قريب جداً من الحدث (٢٤٨ ـ ٣٥٦هـ / ٨٩٧ ـ ٩٦٧م)؟ يذكر في ((مقاتل الطالبيين)) السبب أنّ إحدى مغنيات المتوكل ذهبت مع بعض جواريها لزيارة قبر الإمام الحسين (عليه السلام) في شعبان، وعندما استفسر المتوكل عن سبب غيابهنّ، قيل له: ذهبت للحج، وبعثت المغنية المحظية إحدى جواريها للمتوكل بطلب منه، فقال المتوكل للجارية: ((إلى أين حججتم في شعبان؟ قالت: إلى قبر الحسين...))[٢]، فأمر بهدم القبر وما حوله من المنازل والدور. وينقل الطبري في أحداث السنة نفسها ٢٣٦هـ ((وفيها حجّ محمّد المنتصر، وحجّت معه جدته شجاع أم المتوكل، فشيعها المتوكل إلى النجف))[٣]. ماذا نستنتج من هذه الأخبار المهمة بالنسبة لتاريخ النجف؟

١ ـ إنّ قبر الإمام الحسين (عليه السلام) سنة (٢٣٦هـ / ٨٥٠م) كانت تحيطه المنازل والدور، فكربلاء كانت تعتبر مدينة صغيرة نسبياً، وبالتالي نستطيع أن نقول إنّ قبر الإمام علي (عليه السلام) بالنجف كان بالمثل أو أكثر اتساعاً.

٢ ـ إنّ زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) في شعبان، كانت متعارفاً عليها في ذلك العصر بل تعتبر (حجّة) في العرف الاجتماعي، فلا بدّ أنّه كانت هنالك زيارات مماثلة للنجف كعيد الغدير مثلاً.

٣ ـ إذا كانت مغنيات القصر وجواريه يسعين للزيارة خفية وبإصرار، فما بالك بعامة الناس والمتدينين منهم، فزيارة شعبان كانت كبيرة ومؤثرة على مركز الخلافة، لذا أمر المتوكل بهدم قبر الإمام الحسين (عليه السلام)، ولا نعتبر هذا القرار فردياً، بل بسبب شرخ (سياسي ـ اجتماعي ـ ديني) كبير، أدى إلى حدوث زلازل وبراكين عديدة في أرجاء الدولة العباسية من بعد.

---

(١) الطبري: ج٩ / ص: ١٨٥، وراجع أيضاً ابن الأثير، ج٧ / ص: ٥٥ (أحداث سنة ٢٣٦هـ).

(٢) الاصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص: ٩٧ ـ ٩٨.

(٣) الطبري: ج٩ / ص: ١٨٥.

www.noormags.ir

٤ ـ إنّ طريق الحج كان يبدأ من مدينة النجف، والسبب لا يعود لموقع النجف على أبواب نجد فقط، إنّما كانت هنالك طقوس دينية تجري، كزيارة الإمام وتوديعه، والدعاء بسلامة العودة، فلا يخفى إنّ فريضة الحج كانت شاقة ومتعبة، وقد تكون مهلكة وفق مقاييس ذلك العصر.

٥ ـ شيع المتوكل أمّه وابنه إلى النجف، فهل كان المتوكل يناصب العداء لأهل البيت كرهاً لهم، أم خشية من أعدائهم، وحرصاً على ديمومة عرشه؟ نحن نرى أنّ المتوكل وقع بين سيطرة الأتراك والنواصب والمناوئين لأهل البيت منذ نعومة أظافره من جهة، وبين بعض الموالين والمحبين لأهل البيت من جهة أخرى، وننقل لك هاتين الروايتين:

يحدثنا ابن الجوزي في ((منتظمه)): ((اعتل المتوكل في أول خلافته فقال لئن برئت لأتصدّقن بدنانير كثيرة، فلما برئ جمعَ الفقهاء، فسألهم عن ذلك، فاختلفوا، فبعث إلى علي بن محمد بن علي بن موسى، فقال: تتصدّق بثلاثة وثمانين ديناراً. فعجب قوم من ذلك، وتعصب قوم عليه وقالوا: تسأله يا أمير المؤمنين من أين له هذا؟! فردّ الرسول إليه فقال: قل لأمير المؤمنين في هذا الوفاء بالنذر لأنّ الله تعالى قال: ((لقد نصركم الله في مواطن كثيرة))[1]، فروى أهلنا جميعاً أنّ المواطن في الوقائع والسرايا والغزوات كانت ثلاثة والثمانون موطناً، وأنّ يوم حنين كان الرابع والثمانون، وكلّما زاد أمير المؤمنين في فعل الخير كان أنفع له وأجدى عليه في الدنيا والآخرة))[2].

والأسئلة التي تطرح نفسها في هذه الرواية التاريخية لماذا لجأ المتوكل للإمام علي الهادي(عليه السلام)؟! ولماذا عجب قوم من رأي الإمام؟ ومَن هؤلاء؟ ولماذا تعصب ضده قوم؟ ومَن هؤلاء؟ ولماذا انتصر رأي المتعصبين فردّ السؤال عليه؟ وماذا كان موقف المتوكل من جواب الإمام الأخير؟ ولا ندخل في فلسفة الحد الأدنى للإيفاء بحق النذر، وأنّ الزيادة في فعل الخير أنفع وأجدى في الدنيا والآخرة.

ويذكر لنا ابن خلدون في ((تاريخه)): ((كان المنتصر تنكّر على أبيه انحرافه عن سلفه فيما ذهبوا إليه من مذهب الاعتزال والتشيع لعلي، وربّما كان الندمان في مجلس المتوكل يفيضون في ثلب علي، فينكر المنتصر ذلك ويتهدّدهم ويقول للمتوكل: إنّ علياً هو كبير بيتنا وشيخ بني

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٥.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم...، ج١٢ / ص: ٧٥، أحداث سنة ٢٥٤هـ وفاة الإمام علي الهادي، راجع تاريخ بغداد، ج١٢، ص: ٥٦ ــ ٥٧.

www.noormags.ir

هاشم، فإن كنت لا بدّ ثالبه فتولّ ذلك بنفسك، ولا تجعل لهؤلاء الصفاغين سبيلاً إلى ذلك، فيستخف به ويشتمه، ويأمر وزيره عبيد الله بصفعه، ويتهدّده بالقتل ويصرح بخلعه))[١].

نعم هنالك شرخ اجتماعي كبير، وصل للعظام، وازدواجية في نفسية المتوكل نفسه، تنحني أمام نفوذ الأتراك وسيطرتهم، وتميل للجناح المتعصب الناصبي الأقوى في القصر الجعفري، والواقع أنّ الواثق كان يخشى على المتوكل من هذا الأمر، وعرف المتوكل نفسه أنّه واقع في مأزق خطير، لذا فكر بنقل عاصمة الخلافة إلى دمشق حين أقام بها ثلاثة أشهر سنة ٢٤٤هـ / ٨٥٨م[٢] للخروج من دائرة الصراع، والتيارات المتلاطمة فيها، بالرغم من أنّها مجالس شربه، وليالي أنسه ومحل سمره، ولكنه ما استطاع أنّ ينفذ، لا بجلده ولا بعظمه، فدفع حياته ثمناً بسيف ابنه المنتصر، ومن ورائه سيوف بغا الصغير ((الشرابي))، ووصيف وأتباعهم سنة ٢٤٧هـ / ٨٦١م، والمنتصر الّذي نعته أبوه مرّة بـ((المنتظر)) وأخرى بـ((المستعجل))، هو الآخر بدوره مات مسموماً بعد ستة أشهر من خلافته ليتربع على عرش الخلافة العباسية ((المستعين)) بالأتراك فأصبح كما وصفه الشاعر:

خليفة في قفص	بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له	كما تقول الببغا

ومن الجدير ذكره أنّ المنتصر في سنة ٢٤٨هـ / ٨٦٢م: ((أمر الناس بزيارة قبر علي والحسين (عليهما السلام)، فأمّن العلويين، وكانوا خائفين أيام أبيه))[٣].

إنّ كلمة ((أمر)) التي أوردها ابن الأثير في ((الكامل)) تدل على معنى كبير بالنسبة لنشأة النجف وارتقائها بشكل تدريجي بين مدّ وجزر، ولا بأس أن نسلط الأضواء على قرن من الزمان الآتي بعد ((المنتصر))، قبل أن نشرع بتحديد ((النجف)) مدينة.

ماذا بعد هدم قبر الإمام الحسين(عليه السلام)،ونهج المتوكل ومقتله؟

وصفنا هدم قبر الإمام الحسين (عليه السلام) بالعمل الرهيب، إذ أدّى هذا النهج إلى مقتل المتوكل نفسه، ومن بعد جرّ إلى موت ابنه المنتصر مسموماً كما ذكرنا، ثمّ توالت الانفجارات والثورات باسم أهل البيت بشكل متسارع، ممّا أدّى إلى انعكاسها على نفسية

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٣ / ص: ٣٤٩، دار الفكر ـ بيروت ١٩٨٨م.

(٢) ابن الأثير: ج٦ / ص: ١٦٠، دار الكتاب العربي ١٩٩٧م. الطبري: ج٩ / ص: ٢١٠.

(٣) ابن الأثير: ج٦ / ص: ١٨٨، وراجع المسعودي: مروج الذهب، ج٤ / ص: ١٢٧.

www.noormags.ir

المعتضد، وظهور دولة شيعية وعلوية ساهمت مساهمة فعالة في نمو النجف وازدهارها ورقيها واستمراريتها.

ظهر على الساحة في الكوفة رجب ٢٥٠هـ / أيلول ٨٦٤م أبو الحسين يحيى بن عمر الطالبي، ودعا إلى الرضا من آل محمّد، وكشف أمره وتابعه خلق كثير، منهم أهل البصائر والتدين، ومنهم عامة الناس وسواد الكوفة[١]، ويقتل الرجل إبان ظهوره بأمر من القائد العباسي محمّد بن عبد الله بن طاهر وقد رثاه ابن الرومي بقصيدة مطولة رائعة:

أمامك فانظر أيّ نهجيك تنهجُ طريقان شتّى، مستقيم وأعوجُ

بني المصطفى كم يأكل الناس شلوكم لبلواكم عمّا قليل مفرّج

وهناك عدّة أسئلة تطرح نفسها علينا، لفهم هذا العصر المضطرب: كيف تجرأ ابن الرومي الشاعر المتطير البائس ـ وهو من موالي بني العباس ـ أن يرثي منشقاً على الخلافة، ومن عاصمة الخلافة؟! وكيف تعدّى الرثاء إلى الهجاء؟! ولماذا توقع الشاعر ((عمّا قليل مفرّج))؟!. إذن رأى الكيل قد طفح، ونرى أنّه كانت هنالك استجابة من الجمهور لرثاء هؤلاء، وهجاء أولئك، وعلى ما يبدو أنّ العصر كان ملائماً لنهج التغيير، نعم قد طفح الكيل.. حتّى إنّ رجلاً قد دخل على محمّد بن عبد الله ((فسمعهم يهنئونه، فقال: أيها الأمير، إنّك لتهنأ بقتل رجل لو كان رسول الله (ص) حيّاً لعزّي به، فما ردّ عليه محمّد بن عبد الله شيئاً))[٢].

ومن أحداث السنة نفسها ٢٥٠هـ / ٨٦٤م أن بزغ في رمضانها (تشرين الثاني) فجر الدولة العلوية بطبرستان، ويتزعمها الحسن بن زيد العلوي[٣] (الداعي الكبير)، و((اجتمعت له مع طبرستان الري إلى حدّ همدان))[٤]، بعد أن يظهر في يوم عرفة منها (كانون الثاني ٨٦٥م) بالري أحمد بن عيسى، وإدريس بن موسى العلويان، وصلّى أحمد بأهل الري صلاة العيد، ودعا للرضا من آل محمّد[٥].

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم...، ج١٢ / ص: ٣٣. الطبري: ج٩ / ص: ٢٧٠. ابن الأثير: ج٦/ ص: ٢٠٠ (أحداث سنة ٢٥٠هـ).

(٢) الطبري: ج٩ / ص: ٢٧٠. ابن الجوزي: ج١٢ / ص: ٣٤. ابن الأثير: ج٦ / ص: ٢٠٠.

(٣) هو الحسن بن زيد بن محمّد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن السبط، كبير العلويين تولى الحكم من ٢٥٠ ـ ٢٧٠هـ في طبرستان، يلقب بالداعي الكبير.

(٤) ابن الجوزي: ج١٢ / ص: ٣٥. الطبري: ج٩ / ص: ٢٧٥.

(٥) الطبري: ج٩ / ص: ٢٧٥ ـ ٢٧٦. ابن الأثير: ج٦ / ص: ٢٠٤.

www.noormags.ir

وما أن تطل سنة ٢٥١هـ / ٨٦٥م حتى يطلق ابن الجوزي عبارته الدقيقة في ((منتظمه)) قائلاً ((تحركت العلوية في النواحي))[١]، فخرج الحسين بن زيد بن محمّد على طبرستان، وخرج بالري علي بن جعفر، وخرج الحسن بن أحمد الكوكبي بنواحي قزوين وزنجان فطرد عمال طاهر منها. وظهر بالكوفة رجل من الطالبيين يقال له الحسين بن محمّد بن حمزة وتبعه جماعة كثيرة، فأرسل ((المستعين)) إليه مزاحم بن خاقان، فلما دخل هذا ((المزاحم)) إلى الكوفة، رماه أهلها بالحجارة، فأحرقها بالنار، فاحترق منها سبعة أسواق، وفي رواية. أحرق بالكوفة ألف دار[٢]. ولم تسلم مكة حيث انتفض فيها إسماعيل بن يوسف العلوي فهرب جعفر بن الفضل العامل العباسي عليها[٣].

هذه الثورات، ولك أن تسميها انتفاضات، لم تحدث بسبب عامل الصدفة جزما، وإلا لماذا لم تحدث من قبل ومن بعد بهذه الكثرة والتعاقب الزمني المتسارع؟ هنالك مخزون ثوري مكبوت، وضغوط متزايدة أدّت إلى هذه الانفجارات.

ونستمر معك في سرد الأحداث، لأنها بلورت التعاطف مع العلويين، وساعدت على التعجيل في ولادة مدينة النجف، ولنرى ما الّذي خلّفه المتوكل، وأين سيرسو حفيده المعتضد؟ ففي سنة ٢٥٥هـ/ حزيران ٨٦٩م ((لليلتين خلتا من رجب ظهر بالكوفة عيسى بن جعفر، وعلي بن زيد الحسنيان، فقتلا بها عبد الله بن محمّد بن داود بن عيسى))[٤].

وفي مصر وفي السنة نفسها ظهر ((إنسان علوي، ذكر أنه أحمد بن محمّد بن عبد الله بن إبراهيم بن طباطبا، وكان ظهوره بين برقة والإسكندرية، وسار إلى الصعيد وكثر أتباعه، وادّعى الخلافة، فسيّر إليه أحمد بن طولون جيشاً فقاتلوه، وانهزم أصحابه، وثبت هو فقتل، وحمل رأسه إلى مصر))[٥].

وفي سنة ٢٥٦هـ / ٨٧٠م ظهر علي بن زيد العلوي (الطالبي) بالكوفة، واستولى عليها، وأزال عنها نائب الخليفة واستقرّ بها، فسيّر إليه الشاه بن ميكال في جيش كثيف، فالتقوا

---

(١) ابن الجوزي: ج١٢ / ص: ٤٩.

(٢) راجع ابن الجوزي: المصدر السابق ص: ٤٩ ـ ٥٠. الطبري: ج٩ / ص: ٣٤٦. ابن الأثير: ج٦ / ص: ٢٣٠ ـ ٢٣١، الكركى بدلا من الكوكبي.

(٣) راجع ابن الأثير: ج٦ / ص: ٢٣١. الطبري: ج٩ / ص: ٣٤٦.

(٤) الطبري: ج٩ / ص: ٣٨٨. ابن الأثير: ج٦ / ص: ٢٧٢. ابن الجوزي: ج١٢ / ص: ٧٩ يذكر ((المدينة)) بدلا من ((الكوفة)) وهو غير صحيح على ما نعتقد.

(٥) ابن الأثير: ج٦ / ص: ٢٧٢.

www.noormags.ir

واقتتلوا، فانهزم الشاه، وقتل جماعة كثيرة من أصحابه، ولكن نجا الشاه[١].

ويذكر لنا ابن الأثير في أحداث هذه السنة خروج ابن الصوفي العلوي بصعيد مصر، وذكر أنّه إبراهيم بن محمّد بنَ يحيى... وملك مدينة إسنا، وعرفته البلاد، فسير إليه أحمد بن طولون جيشاً فهزمه العلوي[٢].

وماذا بعد؟! قد خرج أمر المناداة باسم أهل البيت من نطاق العلويين وآلهم إلى عامة الناس، فأصبح حقّاً مشاعاً للجميع ينادون به، وربما ينتسبون إليهم، فصاحب الزنج[٣] يزعم أنّه من العلويين، وثورته تستمر من ٢٥٥ - ٢٧٠هـ/ ٨٦٩ - ٨٨٣م، وكادت هذه الثورة أن تزعزع أركان الخلافة العباسية في بغداد لولا أن يحسم ((الموفق))[٤] بالسطوة والحزم الأمر لصالح العباسيين. وذلك بعد (خراب البصرة). ولا نريد دراسة تحليلية لهذه الثورة، ما لها وما عليها، ولكنها حدثت في هذا العصر، ورسم لنا ابن الرومي صوراً قاتمة ورهيبة لأحداثها، والقصيدة رائعة ومطولة، ليرجع لها من يشاء في ديوانه:

إنّ هذا من الأمور لأمرٌ ... كاد أن لا يقوم في الأوهام
أيّ هول رأوا بهم أيّ هول ... حقّ منه يشيب رأس الغلام
ألف ألف في ساعة قتلوهم ... ثم ساقوا السباء كالأغنام
أين ضوضاء ذلك الخلق فيها ... أين أسواقها ذوات الزحام
سلّط البثق والحريق عليهم ... فتداعت أركانها بانهدام

وما إن خمدت هذه الثورة الزنجية، وخمدت معها البصرة الزاهرة ((معدن الخيرات وقبة الإسلام، وفرضة البلدان)) - كما نعتها ابن الرومي - حتى يشرع القرامطة من الكوفة مقر العلويين، وحاضنة اللغة والثورات والدين، وذلك سنة ٢٧٨هـ / ٨٩١م، ويتزعمهم ((حمدان قرمط))[٥]، ويزعم ((أنّه داعية لأهل البيت، للمنتظر منهم))[١]، ثم تتسع حركتهم في البحرين

(١) الطبري: ج٩ / ص: ٤٧٤. ابن الأثير: ج٦ / ص: ٢٩١.

(٢) ابن الأثير: ج٦ / ص: ٢٩١.

(٣) صاحب الزنج: ادعى أنّه علي بن محمّد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ويقال أنّه من عبد القيس واسمه علي بن محمّد بن عبد الرحيم من قرية من قرى الري، وأمّه ابنة علي بن رحيب (من بني أسد بن خزيمة) ويلقب بالورزنيني نسبة إلى قرية ورزنين وهي من قرى الري كما ذكرنا.

(٤) الموفق: هو أبو أحمد الموفق بالله، واسمه طلحة بن جعفر المتوكل توفي ٢٧٨هـ / ٨٩١م وكان وليا للعهد، والحاكم الفعلي في عهد أخيه المعتمد، والخلفاء العباسيون بعد المعتمد كلّهم من نسله.

(٥) حمدان قرمط: وهو الّذي يُنسب إليه القرامطة، وبدأ أمرهم سنة ٢٧٨هـ، إما نسبة إليه، أو إلى رجل من ناحية

www.noormags.ir

سنة ٢٨٦هـ / ٨٩٩م ويقودهم ((أبو السعيد الجنابي))[٢] إلى أن ينتهي أمرهم بعد أجيال وأجيال على أيدي الأمراء العلويين في البحرين ٤١٩هـ / ١٠٢٧م.

(وماذا بقي لنا من القرن الآتي بعد المنتصر ومقتل المتوكل؟)

الفاطميون يؤسسون دولتهم في تونس منذ ٢٩٧هـ/٩٠٩م، إذ رأسها عبيد الله المهدي، وتمتد إلى مصر ثمّ للشام، وتشغل حيزاً كبيراً في التاريخ الإسلامي حتى نهاية حكم العاضد لدين الله ((عبد الله بن يوسف في الحافظ)) سنة ٥٦٧هـ /١١٧١م. والحمدانيون هم أيضاً من الموالين لأهل بيت النبي (ص)، فيرفع حمدان بن حمدون التغلبي رأيتهم سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م، وتفرض دولتهم هيمنتها على الموصل وحلب، وتستمر حتى ٣٨١هـ/٩٩١م. وكذلك البويهيون وهم أسرة فارسية من أصل ديلمي مشايعة لأهل البيت[٣]، حكمت من ٣٢٠ ـ ٤٤٧هـ/٩٣٢ ـ ١٠٥٥م، واستولت على بغداد مقر الخلافة العباسية ٣٣٤هـ / ٩٤٥م، وفرضت البكاء على الإمام الحسين (عليه السلام)، والاحتفال بعيد الغدير في ٣٥٢هـ/٩٦٣م، كما سنذكر من بعد.

خوزستان قدم إلى سواد الكوفة، أظهر التزهد والتقشف، وسانده ((كرميتة))، ويسمى بذلك لحمرة عينيه، وكرميتة بالنبطية أحمر العينين وخفف إلى قرمط. راجع الطبري: ج١٠/ص: ٢٣ وما بعدها. ونقل ابن الجوزي في ((المنتظم)) ج١٢ ص: ٢٨٧ ستة أقوال لتسمية القرامطة.

(١) ابن خلدون: ج٣/ص: ٤١٩.

(٢) هو الحسن بن مهرام توفي ٣٠١هـ/٩١٣م داعي القرامطة، أصله من جنابة بفارس، أخضع البحرين سنة ٢٨٦هـ/٨٩٩م... وابنه سليمان (أبو طاهر الجنابي) توفي ٣٢٢هـ/٩٤٤م أشهر ملوك القرامطة في البحرين، دخل مكة ٣١٧هـ/٩٣٠م، واقتلع الحجر الأسود ونقله إلى هجر بالبحرين.

(٣) الفاطميون: شيعة إسماعيلية يعتقدون بإمامة إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)، ويؤكد ابن خلدون (ج٣ / ص: ٤٤٩) نسبتهم إلى إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق ((ولا يلتف لإنكار هذا النسب)) ثم يأتي بأدلته على صحة نسبهم للإمام جعفر الصادق ص: ٤٥٠، وظهور كلمتهم أو شيء على صدق نسبتهم..)) ولكنهم انشقوا في عهد أحمد المستعلي (٤٨٧ ـ ٤٩٥هـ/ ١٠٩٤ ـ ١١٠١م) ابن المستنصر بالله الفاطمي، وفي (٥٥٨هـ / ١١٦٢م) تم إلغاء الشعائر الدينية والامتناع عن إقامة الفرائض لطائفة منهم وهم ((النزاريون أو الحشاشون)) أتباع آغا خان حالياً، أما الطائفة الأخرى فهي ((السبعية أو البهرة)). والحمدانيون هم شيعة اثنا عشرية، ولا خلاف حول ذلك وديوان أبي فراس الحمداني يتضمن عدة قصائد يعدّد فيها الأئمة. والبويهيون أيضاً من الطائفة الشيعية. ويرى المسعودي في ((مروج الذهب))، وابن حوقل في ((تفصيل الترك...))، وابن خلدون في ((تاريخه)) أنّهم كانوا زيدية. أما ابن الأثير فيرى أنّهم من الشيعة الاثني عشرية الغلاة. ولكن (H. Gibb) في (Government Islam). Page: 8 يشكك في رواية ابن الأثير من حيث كونهم غلاة، ولا يعتقد بأنهم كانوا زيدية، بل إنّهم ربما كانوا اثني عشرية كما يتضح من سلوكهم في أيامهم الأخيرة. راجع ((البويهيون والخلافة العباسية)) د. إبراهيم سلمان، ص: ١٨٥.

www.noormags.ir

نقول في مثل هذه الأجواء: لا بدّ أن تزدهر النجف، ويتسابق الخلفاء والملوك والأمراء والسلاطين على رعايتها عمرانياً واجتماعياً واقتصادياً، ويحيطونها بهالة من التقديس والإجلال، وفق مقاييس عصرهم الّذي تسابق على آل محمّد (ص)، ولا ريب أنّ الإمام علياً (عليه السلام) هو أبو الشهداء والثوار، الّذي به يفتخرون وإليه ينتسبون.

النجف مدينة (٢٨٢هـ / ٨٩٥م):

من وجهة نظرنا أنّ النجف أصبحت مدينة بشكل مشروع، ولم يعد هنالك مَن يزعزع كيانها، ولا مَن يخشى السكن فيها، والإقامة بها منذ عهد المعتضد[١] العباسي (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ / ٨٩٢ ـ ٩٠٢م). أما قبله وحتى في عهد المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ / ٨٧٠ ـ ٨٩٢م). وأخيه ((الموفق)) ولي العهد وصاحب السلطة والقرار، فلم تكن النجف كمشروع سكن آمن، ولم يتمكن الناس من زيارة قبر الإمام بشكل علني ومسموح به، إذ ينقل صاحب ((فرحة الغري)) رواية عن ((محمّد بن علي بن رحيم الشيباني قال: مضيت أنا ووالدي علي بن رحيم، وعمي حسين بن رحيم وأنا صبي في سنة نيف وستين ومائتين، بالليل معنا جماعة متخفين إلى الغري لزيارة قبر مولانا أمير المؤمنين (عليه السلام)، فلما جئنا إلى القبر، وكان يومئذ قبر حوله حجارة لسنده، ولا بناء عنده، وليس في طريقه غير قائم الغري))[٢].

ولكن لماذا في عهد المعتضد، وما هو الحافز الّذي عضّد المعتضد للانفتاح على العلويين وشيعتهم وبالتالي بناء مشاهد أئمتهم والاحتفاء بها؟

أولاً: إنّ عهد المعتضد ـ كما ذكرنا ـ جاء بعد سلسلة من ثورات العلويين وانتفاضاتهم وحركاتهم، فكان لا بدّ من هذا الانفتاح لامتصاص غضب الجماهير وسخطها للظلم الّذي أحاط آل النبيّ (عليهم السلام) وغصب حقّهم وساعد على استمرارية هذا الانفتاح وتطويره الدول الشيعية التي توالت على العالم الإسلامي بعد عهد المعتضد كالحمدانيين والفاطميين والبويهيين، عدا العلويين في طبرستان، فإنّ تأسيس دولتهم سبق عهد المعتضد، ولكنهم ساهموا مساهمة فعالة في هذا الانفتاح وازدهاره، وحتى القرامطة لم يعبثوا بالنجف، بل على ما يبدو كانوا يبدون اهتماماً ملحوظاً بها[٣]، والحقيقة أنّ الحركة القرمطية ذات أصول شيعية،

---

(١) المعتضد بالله هو أحمد بن طلحة، أبو العباس الخليفة العباسي السادس عشر، ولد في بغداد سنة ٢٤٢هـ / ٨٥٧م كان عادلاً شجاعاً، أرجع للخلافة هيبتها وأصلح أمور بيت المال، توفي سنة ٢٨٩هـ / ٩٠٢م.

(٢) ابن طاووس: فرحة الغري، ص: ١٤١.

(٣) يذكر ابن الجوزي: المنتظم، ج١٣ / ص: ٢٤٨ ـ ٢٤٩، في أحداث سنة ٣١٣هـ تبعْ أبو طاهر الجنابي

www.noormags.ir

انطلقت من الكوفة، وكان لها في الكوفة أنصار وأعداء.

ثانياً: أنَ المعتضد ـ كما يصفه المؤرخون ـ كان عادلاً، صاحب قوة وبأس، وقد بذل محاولات عديدة لإعادة الهيبة للخلافة العباسية، واستطاع أن يدعم اقتصادها المنهار بسياسته الحكيمة، وقوة بصيرته[١]، والاستقرار الاقتصادي كما لا يخفى يغطي على جميع الحركات، فلم تقم أيّة حركة علوية في عهده، سوى القرامطة، وهي ليست حركة علوية على كل حال.

ثالثاً: إن المعتضد ـ كما يبدو لنا ـ كان يخزن في عقله الباطن حبّاً للإمام علي (عليه السلام)، وولاء له، إذ يحدثنا الطبري في ((تاريخه)) ـ وهو ممّن عاصر المعتضد واعتمد ابن الأثير في ((الكامل)) وابن الجوزي في ((المنتظم)) روايته ـ يقول الطبري: ((كان محمّد بن زيد العلوي[٢]، قد وجّه من طبرستان إلى محمّد بن ورد العطار باثنين وثلاثين ألف دينار ليفرقها على أهل بيته ببغداد والكوفة، فسعى به إلى المعتضد، فأحضر محمّد عند بدر[٣]، وأنهى بدر إلى المعتضد ذلك، فقال له المعتضد: أما تذكر الرؤيا التي أخبرتك بها؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، قال: رأيت في النوم كأنّي أريد ناحية النهروان وأنا في جيش، إذ مررتُ برجل واقف على تل يصلي، ولا يلتفت إليّ فعجبت، فلما فرغ من صلاته قال لي: أقبل، فأقبلت إليه. فقال لي: أتعرفني؟ قلت: لا. قال: أنا علي بن أبي طالب، خذ هذه (مسحاة كانت بين يديه) فاضرب بها الأرض. فأخذتها فضربت بها ضربات، فقال لي: إنّه سيلي من ولدك هذا الأمر بعدد الضربات، فأوصهم بولدي خيراً. وأمر بدر بإطلاق المال والرجل، وأمره أن يكتب إلى صاحبه بطبرستان أن يوجه ما يريد ظاهراً، وأن يفرق ما يأتيه ظاهراً، وتقدم بمعونته على ذلك))[٤]. إنَ هذه الحادثة التي حدثت سنة ٢٨٢هـ / ٨٩٥م تبيّن أنَ المعتضد قد فتح الباب على مصراعيها

القرمطي القوافل ورجال السلطان حتى صار إلى القادسية... ثم رحل إلى الكوفة وخرج إليه أهل الكوفة وأصحاب السلطان فحاربوه فغلبهم، وأقام بظاهر الكوفة سبعة أيام يدخل البلد بالنهار ويخرج بالليل فيبيت في معسكره. وفي ((المنتظم)) ج١٣ / ص: ٢٦٣، أحداث سنة ٣١٥هـ، قدم الهجري (أبو طاهر الجنابي) بمقدمته في مائتي رجل. فنزلت مقدمته في النجف ونزل هو بدير هند بحضرة خندق الكوفة.

(١) راجع (From Damascus to Baghdad) ... B. Abamski, I lrene, Page: 244 _ 245, 1985 U.S.A Photocopy).

(٢) محمّد بن زيد العلوي: تولى الحكم على طبرستان بعد أخيه الحسن (الداعي الكبير) وذلك عام ٢٧٠هـ، وقتل عام ٢٨٧هـ ويدعى بالداعي الصغير، ويذكر بن طاووس نسبه كالآتي محمّد بن زيد بن الحسن بن محمّد بن إسماعيل جالب الحجارة بن الحسن دفين الحاجز بن زيد الجواد بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب (عليه السلام).

(٣) بدر كان غلاماً للمعتضد فولاه الشرطة عند تسلمه الخلافة.

(٤) راجع الطبري: ج١٠ / ص: ٤١ ـ ٤٢، ابن الأثير: ج٧ / ص: ٤٧٤.

www.noormags.ir

لرعاية العلويين والاهتمام بهم وفسح المجال لتعمير مشاهد الأئمة وتشييد القبب عليها، فتعتبر هذه الإشارة الحافز المباشر لإعلان النجف مدينة.

رابعاً: لم يكتف المعتضد بهذا الانفتاح، وكأنما أراد تأكيد نهجه، ففي سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م ((عزم المعتضد على لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر، وأمر بإنشاء كتاب يقرأ على الناس بذلك، فخوّفه عبيد الله بن سليمان اضطراب العامة وحذّره الفتنة، فلم يلتفت إلى قوله وعملت النسخ[١]، وقرأت بالجانبين في يوم الأربعاء لست بقين من جمادى الأولى... وتقدم إلى الّذين يسقون الماء في الجامع أن لا يترحموا على معاوية ولا يذكروه))[٢]. وفي مثل هذه الأجواء لا بدّ أن يتشجع العلويون وأنصارهم من شيعة أهل البيت للمزيد من الاهتمام والعناية بمشاهد الأئمة (عليهم السلام)، وزيارتها وبالتالي للسكنى بجوارها.

خامساً: لا بدّ من الإشارة أخيراً إلى أنّ المعتضد إلى جانب هذا الاهتمام البالغ بالعلويين أو بالأحرى بالإمام علي (عليه السلام) وبأحقيته بالخلافة طبعاً أو تطبعاً، كان شديد البأس والانتقام من الخوارج، إذ يحدثنا ابن الجوزي في أحداث سنة ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م: ((وجّه يوسف بن أبي الساج اثنتين وثلاثين نفساً من الخوارج من طريق الموصل فضربت أعناق خمسة وعشرين منهم وصلبوا، وحبس باقيهم))[٣].

هذا كلّه يجعلنا نطمئن إلى أنّ المعتضد وعصره كانا يصبان في نفس المنحى لرعاية مشاهد الأئمة (عليهم السلام)، ومراقدهم المقدسة وبالتالي الاهتمام بالنجف. وأنّ محمّد بن زيد العلوي استناداً إلى هذا الانفتاح قد بسط يديه كلياً لبناء قبة على ضريح الإمام علي (عليه السلام)، وأحاطها بحائط وسور اشتمل على سبعين طاقاً[٤]، وقد ذكر ذلك ابن طاووس بقوله ((وهو (محمّد بن زيد العلوي) بنى المشهد الشريف الغروي أيام المعتضد))[٥]. وقد ذكر هذه العمارة ابن أبي الحديد في شرحه ج٢ / صفحة ٤٥و٤٦، ولكنه اقتصر على ذكر القبة فقط. وفي تاريخ طبرستان الفارسي ج١ / صفحة ٩٥: ((إنّ المتوكل العباسي خرب عمارة النجف كما

---

(١) راجع الطبري: ج١٠ / ص: ٥٤ وما بعدها.

(٢) ابن الجوزي: ج١٢ / ص: ٣٧١ ــ ٣٧٢. وكذلك الطبري: ج١٠ / ص: ٥٤. ابن الأثير: أحداث سنة ٢٨٤هـ.

(٣) ابن الجوزي: ج١٢ / ص: ٣٣٣.

(٤) راجع الخاقاني: شعراء الغري، ج١ / ص: ١٠ ــ ١٢. محبوبة: ج١ / ص: ٤٢ ــ ٤٣. وينقل السيّد الأمين في ((الأعيان)) ج٩ / ص: ٣٣٧ الهامش ((وفي عهد الداعي محمّد بن زيد الّذي كان في طبرستان أرسل من طرفه أموالاً وعمر مشهد الإمام الحسين (عليه السلام)))).

(٥) ابن طاووس: فرحة الغري، ص: ١٢٨.

www.noormags.ir

خرب عمارة الحسين (عليه السلام)، وأعادها محمّد بن زيد الداعي، وأعاد جميع القبور الدارسة للطالبيين))[١]. ولكن لم نعثر في كتب التاريخ التي اعتمدنا عليها في دراستنا أنّ المتوكل قد خرب عمارة النجف، والطبري كان معاصراً للحدث، فلو كان حدث مثل هذا في عصره، فلا نعتقد أنّه لا يذكره ولو إشارة.

ومهما يكن من أمر، فقد ((طرأت على هذه العمارة عمارة الرئيس الجليل يحيى ابن عمر القائم بالكوفة، فإنّه عمّر مرقد جدّه أمير المؤمنين (عليه السلام) من خالص ماله، وكان يحيى هذا من أصحاب الإمام الكاظم (عليه السلام)، قتل سنة ٢٥٠هـ، وحمل رأسه في قوصرة إلى المستعين العباسي))[٢]، وذكرنا خبره سابقاً، ورثاه ابن الرومي له، وهذا ابنه عمر الّذي تكفل ببناء العمارة الجديدة. ولم تمض فترة طويلة حتى جاء إلى النجف أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان[٣] (ت٣١٧هـ/٩٢٩م) فابتنى على القبر قبة عظيمة مرتفعة الأركان من كل جانب لها أبواب وسترها بفاخر الستور، وفرشها بثمين الحصر الساماني، وجعل عليها حصاراً منيعاً، كما يذكر ابن حوقل في ((صورة الأرض))[٤]، وهو ممّن عاصر الحدث.

وهكذا أخذ الحكام والسلاطين يتسابقون على إبداء الاهتمام الكبير والرعاية القصوى للمرقد الشريف والمدينة المباركة، كتسابقهم على تكريس عروشهم والبقاء على سلطتهم، واهتمامهم للنفوذ في نفوس الناس وقلوبهم؛ لأنّ أهل بيت النبي (ص) أصبحوا رمزاً للمبدأ والمظلومية والشهادة والفداء والتعفف ونكران الذات طوال العصرين الأموي والعباسي، ولا ريب أنّ الإمام علياً (عليه السلام) كان أبا الشهداء جميعاً.

ونكتفي بهذا القدر، والحق ليس كل مَن رفع رايتهم سار على دربهم، فكم مرّة أصبح أهل البيت جسراً للمعارضين السياسيين أو الدينيين الّذين يتطلعون لتسلم السلطة وارتقاء العرش، وبعدها ((لا خبرٌ جاء ولا وحي نزل))، فما أصدق دعبل الخزاعي حيث قال:

أرى فيأهم في غيرهم متقسماً وأيديهم من فيئهم صفرات

---

(١) محبوبة: ج١ / ص: ٤٣.

(٢) الخاقاني: شعراء الغري، ج١ / ص: ١١ ــ ١٢. محبوبة: ج١ / ص: ٤٣.

(٣) أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان هو والد سيف الدولة الحمداني، أصبح أميرا على الموصل سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م وتوفي سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م.

(٤) راجع ابن حوقل ((صورة الأرض))، ص: ٢٤٠. (توفي ابن حوقل ٣٦٧هـ / ٩٧٧م).

www.noormags.ir

النجف في العصر البويهي:

ونواصل مسيرتنا النجفية، فما أن يأتي البويهيون إلى العراق ويدخلوا بغداد سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م بقيادة معزّ الدولة[١]، حتى سارع إلى رفع الشعائر الحسينية، وذرف الدموع الكربلائية، والاحتفال بعيد الغدير كما يحدثنا ابن الأثير في أحداث سنة ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م قائلاً: ((في هذه السنة عاشر المحرم، أمر معز الدولة الناس أن يغلقوا دكاكينهم، ويبطلوا الأسواق، البيع والشراء، وأن يظهروا النياحة، ولبسوا قباباً علموها بالمسوح، وأن تخرج النساء منشرات الشعور مسوّدات الوجوه قد شققن ثيابهن، يدرن في البلد بالنوائح، ويلطمن وجوههن على الحسين بن علي (رضي الله عنهما)، ففعل الناس ذلك... وفي ثامن عشر ذي الحجة أمر معز الدولة بإظهار الزينة في البلد، وأشعلت النيران بمجلس الشرطة، وأظهر الفرح، وفتحت الأسواق بالليل كما يفعل ليالي الأعياد، فعل ذلك فرحاً بعيد الغدير، يعني غدير خم، وضربت الدبادب والبوقات، وكان يوماً مشهوداً...))[٢].

ومن تلك السنة خرج البكاء والحزن على الإمام الحسين (عليه السلام) من السر إلى الجهر، ومن نطاق العلويين والمتعلقين بهم إلى عامة الناس خاصتهم وعوامهم، وأخذت النجف تتسع بناءً وتعجّ بالزوار، وتوارد العلماء إليها للدراسة والبحث والتفقه بأمور الدين والدنيا، وما أن توفي معزّ الدولة حتى تولى ابنه عزّ الدولة (بختيار) السلطنة، وبقيت النجف على حالها من القداسة والسكينة والتطور النسبي، ولما جاء عضد الدولة البويهي[٣] سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م اهتمّ هذا السلطان بأمر النجف اهتماماً بالغاً، وبلغت أوج عظمتها في تلك الحقبة، إذ بالغ عضد الدولة في إجراء التعميرات والإصلاحات سنة ٣٦٨هـ / ٩٧٨م. وبعد أن استقرت الأحوال في بغداد، أسرع بتعمير المشهد العلوي وأقام عمارة عظيمة على قبر الإمام علي (عليه السلام)، وأنفق عليه أموالاً كثيرة، وستر حيطان المشهد بخشب الساج المنقوش، ووقف له الأوقاف الوفيرة وبنى عليه قبة بيضاء[٤]، وفيها يقول ابن الحجاج الشاعر[١]:

---

(١) معز الدولة البويهي: هو أبو الحسن أحمد بن بويه (٣٠٣ ــ ٣٥٧هـ / ٩١٥ ــ ٩٦٥م) أحد الأخوة الثلاثة الذين أسّسوا الدولة البويهية، استولى على واسط بعد عدّة محاولات، دخل بغداد ٣٣٤ هـ / ٩٤٥م، خلع عليه المستكفي لقب ((أمير الأمراء)).

(٢) ابن الأثير: ج٨ / ص: ٥٤٩ ــ ٥٥٠، أحداث سنة ٣٥٢هـ.

(٣) عضد الدولة البويهي: هو أبو شجاع فناخسرو بن ركن الدولة بن علي بن بويه الديلمي، ولد بإصفهان ٣٢٤هـ / ٩٣٥م، وتوفي سنة ٣٧٢ هـ / ٩٨٢م، ودفن بالنجف في الصحن الشريف وكانت إمارته في العراق خمس سنين ونصفاً.

(٤) يذكر الخاقاني في ((شعراء الغري)) ج١ / ص: ١٠ ــ ١٢ ((إنّ عضد الدولة أنشأ عمارة ضخمة جداً وذلك عام

www.noormags.ir

يا صاحب القبة البيضاء في النجـف ... مَن زار قبرك واستشفى لديك شُـفي
زوروا أبا الحـسن الهـادي لعلّكـمُ ... تحظون بالأجر والإقبـال والزّلـف
حتّى إذا طفت سـبعاً حـول قبتـه ... تأمّـل البـاب تلقـا وجهـه فقـف
وقل سلام مـن الله الـسلام علـى ... أهل السلام وأهل العلم والـشرف[٢]

ومما يجب ذكره في هذا الصدد أنّ صاحب ((روضات الجنات)) ذكر خبراً ونقله السيّد الأمين في ((الأعيان)) عن ((الرياض))، ويعتمده الأميني في ((الغدير)) وغيرهم من الباحثين والمؤرخين يتلاقفونه كأنّه حقيقة، والخبر يقول: ((إنّ السلطان مسعود بن بويه الديلمي بنى سور مشهد النجف الأشرف، وفرغ من تعمير القبة الزاكية، وتجصيص خارجها وداخلها، ودخل الحضرة الشريفة، وقبل القبة المنيفة، وجلس على حسن الأدب، فوقف أبو عبد الله (حسين بن عبد الله ابن الحجاج) بين يديه، وأنشد قصيدته التي أولها (يا صاحب القبة البيضاء في النجف) ـ هكذا ـ وكان الشريف المرتضى حاضراً، فنهره عند وصوله لهجاء ابن سكرة الشاعر)) ولا نرغب بإتمام الرواية بما فيها من حلم رآه الشريف، ورأى الشاعر الحلم نفسه، ورأى الشريف الإمام علياً (عليه السلام)، وطلب منه أن يعتذر من الشاعر، وفي الصباح اعتذر الأول للثاني، ثم أنشد الشاعر قصيدته كاملة أمام السلطان مرة ثانية[٣].

يبدو لنا أنّ هذه الرواية موضوعة في العصر السلجوقي، وغير مسبوكة تماماً، فلا يوجد سلطان اسمه ((مسعود بن بويه))، إذ لم نعثر على أيّة ترجمة لهذا ((المسعود))، في كلّ الكتب

٣٣٨هـ)) وهو خطأ. وينقل الأعلمي في ((موسوعته الشيعية)) ج١٨ / ص: ٦٤ خبر بناء القبة البيضاء والسور حول النجف من قبل عضد الدولة في سنة ٣٨٧هـ وهو خطأ أيضا كما لا يخفى. أما ما جاء في ((إرشاد القلوب)) للديلمي ص: ٤٣٦ ونقله السيّد الأمين في ((الأعيان)) ج٨ / ص: ٤٢٣ بأن ((عضد الدولة أقام في النجف قريباً من سنة هو وعساكره)) فلا نميل لهذا الخبر من حيث مدة الإقامة بالنجف، فعضد الدولة كما يحدثنا التاريخ قد رحل من بغداد بعد مقتل بختيار ووزيره ابن بقية إلى الموصل فملكها ثم توجه إلى ميافارقين وديار بكر وانشغل بفتحها سنة ٣٦٨هـ...

(١) ابن الحجاج: هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمّد بن جعفر بن محمّد بن الحجاج النيلي البغدادي من كبار علماء الشيعة وشعرائهم المتوفى سنة ٣٩١هـ / ١٠٠١م، وكانت ولادته في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، عاش عمراً طويلاً بحدود ١٣٠سنة.

(٢) الأميني: الغدير، ج٤ / ص: ٨٩، دار الكتب الإسلامية، طهران ١٤٠٨هـ.

(٣) راجع المصدر السابق، ص: ٩٧ يجعله السلطان مسعود بن بابويه. الأمين: الأعيان، ج٥/ ص: ٤٢٩ ـ ٤٣٠. الخونساري: روضات الجنات، ج٣ / ص: ١٦١. وفي ((بلدان الخلافة الشرقية)) ص: ١٠٤، ينقل لسترنج عن المستوفي أنه في سنة ٣٦٦هـ شيّد عضد الدولة البويهي الضريح، ولا نعتقد بصحة التاريخ.

www.noormags.ir

التاريخية، بل حتى من قبل المؤرخين الّذين تناقلوا الرواية أنفسهم، وإذا وافقنا محقق الغدير بهامشه أنّ المقصود بـ((مسعود)) ربّما كان ((عضد الدولة))، ولكن كلّ المؤرخين يجمعون على أنّ اسم عضد الدولة (فناخسرو)، ثمّ إنّ إدراج الشريف المرتضى بأحداثها فيه إشكال كبير، إذ يبلغ عمره إبان بناء القبة والسور ثلاث عشرة سنة (مواليد ٣٥٥هـ / ٩٦٦م)، وهذا لا يجوز عقلاً، أن يصحب الشريف بمثل هذا العمر السلطان الكبير، وينهر الشاعر وعمره قد تجاوز المائة بحضرته، وكيف تولى إمارة الطالبيين بهذا العمر؟!!.

ومهما يكن من أمر فقد كان عضد الدولة يزور المشهد العلوي في كلّ سنة بموكبه العظيم، وهو أول من عيّن السادات والخدمة للمشهد المقدس بعد إتمام العمارة، وأجرى لهم الأرزاق، وبالغ بلزوم تنظيم شؤون الحضرة المقدسة، وفي الوقت نفسه حصن المدينة ببناء سور منيع حولها، وهو أول مَن أقام السور عليها[١] ووسّع البلدة، حيث أصبحت حول المرقد المطهر بلاد صغيرة محيطة به، وشجّع العلويين وغيرهم للشخوص إلى النجف، والسكن حول مشهد الإمام علي (عليه السلام)، وقدر محيط المدينة حينذاك بـ((٢٥٠٠)) خطوة[٢]. وذكر بعض المؤرخين أنّ عدد نفوس النجف عند زيارة عضد الدولة سنة ٣٧١هـ / ٩٨١م كان ما يقرب من ٦٠٠٠ نسمة بينهم من العلويين ١٧٠٠ نسمة[٣].

ويذكر لنا ابن طاووس في ((فرحة الغري)) عن هذه الزيارة التي تمت في جمادى الأولى من السنة المذكورة للمشهدين الشريفين الطاهرين الغروي والحائري قائلاً: بعد خروجه من المشهد الحائري ((توجه إلى الكوفة لخمس بقين من جمادى الآخرة، ودخلها وتوجه إلى المشهد الغروي يوم الاثنين ثاني يوم وروده، وزار الحرم الشريف، وطرح في الصندوق دارهم، فأصاب كلّ واحد منهم واحد وعشرون درهماً، وكان عدد العلويين ألفاً وسبعمائة اسم، وفرّق على المجاورين وغيرهم خمسمائة ألف درهم، وعلى المتردّدين خمسمائة ألف درهم، وعلى الناحية ألف درهم، وعلى الفقراء والفقهاء ثلاثة دراهم وعلى المرتبين من الخازن والبواب...))[٤].

وأنشد أبو إسحاق الصابي يمدح عضد الدولة في هذه الزيارة بقصيدة مطلعها:

---

(١) الأمين: الأعيان، ج٨ / ص: ٤٢٣.

(٢) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص: ١٠٤.

(٣) الأمين: الأعيان، ج٨ / ص: ٤٢٣.

(٤) ابن طاووس: فرحة الغري، ص: ١٣٣.

www.noormags.ir

توجهت نحو المشهد العلم الفرد تأمّل الباب تلقا وجهه فقف
تزور أمير المؤمنين فيا له ويا لك من مجد منيخ على مجد

وبقي لنا أن نذكر عن عضد الدولة بأنّه فكر بإيصال الماء إلى النجف خدمة لسكّانها والزوار، وربما كان يطمح أيضاً لتوسيع المدينة، فأصلح قناة قديمة، وأجرى الماء فيها وسمّيت باسمه ((قناة عضد الدولة)) أو ((قناة آل بويه))، وبقيت النجف لعدة قرون تسقي منها، وحفر آباراً عميقة محكمة البناء في النجف، ووصل بينها بقنوات محكمة يسير فيها الفارس فيجري الماء من بئر إلى بئر، ثم يخرج منه إلى جهة المغرب[١].

وقد توفي عضد الدولة البويهي في السنة التالية من زيارته، أي في سنة ٣٧٢هـ / ٩٨٢م ونقل إلى النجف ودفن في الصحن الشريف، وفي سنة ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م ظهر للعيان قبره ((وعليه صخرة منقوش عليها آية ((وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد))، ومرسوم بعد ذلك اسم فناخسرو ـ عضد الدولة ـ والتصريح بدفنه، ومن حواليه قبور بني بويه))[٢].

أطلنا المقام مع عضد الدولة، لأنّه ترك آثاراً كبيرة وأعمالاً جليلة في النجف بالرغم من قصر فترة حكمه للعراق، وسنمضي قدماً في العصر البويهي، فيحدثنا ابن الأثير في أحداث سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م: ((وفيها مرض أبو محمّد بن سهلان، فاشتدّ مرضه، فنذر إن عوفي بنى سوراً على مشهد أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، فعوفي، فأمر ببناء سور عليه، فبني في هذه السنة، تولى بناءه أبو إسحاق الأرجاني))[٣].

وفي ((المنتظم)) يذكر ابن الجوزي ((في جمادى الأولى بدئ ببناء السور على المشهد بالحائر وكان أبو محمّد الحسن بن الفضل بن سهلان قد زار هذا المشهد، وأحبّ أن يؤثر فيه أثراً، ثم ما نذر لأجله أن يعمل عليه سوراً حصيناً مانعاً لكثرة مَن يطرق الموضع من العرب، وشرع في قضاء هذا النذر، ففعل وغير السور، وأحكم وعلّى وعرّض، ونصبت عليه أبواب وثيقة وبعضها حديد، وتمّم وفرغ منه وتحصن المشهد به، وحسن الأثر فيه))[٤]. ولا نعلم لماذا ذكر ابن الجوزي ((الحائر))، فهل كانا سورين، أحدهما للنجف والآخر لكربلاء، أم المقصود

(١) الأمين: الأعيان، ج٨ / ص: ٤٢٤.
(٢) محبوبة: ص: ٢٣٧.
(٣) ابن الأثير: ج٩ / ص: ٢١٩ ـ دار بيروت ١٩٦٥م. وأبو محمّد الحسن بن سهلان هو عميد أصحاب الجيوش استوزره سلطان الدولة في سنة ٤٠٦هـ.
(٤) ابن الجوزي: المنتظم، ج١٥ / ص: ٧٠.

www.noormags.ir

به سور النجف، إذ يذكر ابن كثير في ((البداية والنهاية))، وتروى عنه بعض القصص أنّه قد استمر إلى أواخر القرن السادس))[١]؟

وبعد بناء هذا السور بسنة واحدة، أي في سنة ٤٠١هـ / ١٠١٠م يخطب قرواس بن المقلد أمير بني عقيل للحاكم بأمر الله العلوي (الفاطمي) صاحب مصر بأعماله كلّها وهي الموصل والأنبار والمدائن والكوفة وغيرها، فأمر بهاء الدولة عميد جيوشه بحرب قرواس، فأرسل إليه يعتذر وقطع خطبة الفاطميين، وأعاد خطبة القادر العباسي[٢]. من هذا الخبر الّذي نقلناه عن ابن الأثير بتصرف، يتضح لنا أنّ الفاطميين كانت لهم أطماع في العراق، وعلى الخصوص منطقة الكوفة، إذ يحدثنا هذه المرة صاحب ((المنتظم)) في أحداث سنة ٤٢٨هـ / ١٠٣٦م بأنّ صاحب مصر ـ ويعني به المستنصر بالله الفاطمي ـ ((قد بعث مالاً لينفقه على نهر الكوفة، فجاء أهل الكوفة يستأذنون الخليفة، فجمع الفقهاء لذلك في جمادى الآخرة، فقالوا: هذا مال من فيء المسلمين وصرفه في مصالحهم صواب، فأذن في ذلك))[٣].

ولكن ماذا الكوفة؟ وماذا بالكوفة بالنسبة لصاحب مصر العلوي (الفاطمي) غير الإمام علي (عليه السلام)؟ وما قيمة المال الّذي يذهب أهل الكوفة للخليفة العباسي القائم ليستأذنوه، فيجمع الفقهاء لأجله؟ كان هنالك ـ بلا ريب ـ اهتمام خاص بالنجف ومنطقتها، بل تسابق بين الحمدانيين والبويهيين والفاطميين على رعاية شيعة أهل البيت وأنصارهم، والعناية البالغة بمراقد أئمتهم، وإلى هذا ذهب ابن كثير في ((البداية والنهاية)) أحداث سنة ٤١٣هـ / ١٠٢٢م في معرض كلامه عن الشيخ المفيد[٤]، إبان وفاته قائلاً ((كانت له وجاهة عند ملوك الأطراف، لميل كثير من أهل ذلك الزمان إلى التشيع، وكان مجلسه يحضره خلق كثير من العلماء، من سائر

---

(١) راجع محبوبة: ج١ / ص: ٢١٠. والخبر مذكور في ((البداية والنهاية))، ج١١ / ص: ٣٤٢. مكتبة المعارف، ١٩٦٦م. فيذكر في أحداث سنة ٤٠٠هـ: ((وفيها كمل السور على مشهد أمير المؤمنين علي (عليه السلام) الّذي بناه أبو إسحاق الأجاني (كذا)، وذلك إنّ أبا محمّد بن سهلان مرض فنذر إن عوفي ليبنينه فعوفي)). ويعود مرة أخرى في ج١٢/ ص: ١٦ فيذكر: ((وفيها من الأعيان الحسن بن الفضل بن سهلان، أبو محمّد الرامهرمزي، وزير سلطان الدولة، (ت٤١٤هـ) وهو الّذي بنى سور الحائر عند مشهد الحسين، قتل في شعبان منها)). فنؤكد لم نزل غير متحققين هل تمّ بناء سور على الحائر الحسيني الشريف أم لا؟ أما بالنسبة لسور النجف وهو مجال بحثنا فنحن على يقين من بنائه من قبل الوزير ابن سهلان.

(٢) راجع ابن الأثير: ج٧ / ص: ٥٧١ (العلمية). وابن كثير: البداية والنهاية، ج١١/ ص:٣٤٣.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم، ج١٥ / ص: ٢٥٦. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢ / ص: ٤٠.

(٤) الشيخ المفيد: محمّد بن محمّد بن النعمان (ت ٤١٣هـ / ١٠٢٢م) فقيه الشيعة في عصره، نشأ وتوفي ببغداد، مؤلف مكثر، ويعرف أيضاً بابن المعلم.

www.noormags.ir

الطوائف))[١].

فلا نستغرب بمثل هذه الأجواء، والانعطاف الشعبي الحاد نحو نهج أهل البيت أن يقوم الملك جلال الدولة أبو طاهر بن بهاء الدولة البويهي بزيارة المشهدين الطاهرين الحائري والغروي، يمشي حافياً قبل أن يصل إلى كل مشهد منهما بنحو فرسخ[٢]، وذلك سنة ٤٣١هـ / ١٠٣٩م، والحقيقة نحن الآن في أواخر العصر البويهي حيث سيطرة الأتراك، وضعف الدولة البويهية، وازدياد القلاقل الداخلية في العراق، وحدوث الفتن الطائفية بين الشيعة والسنة في بغداد اعتباراً من ٤٤٣هـ / ١٠٥١م: ((ولم تزل تنجم وتخبو بين الفينة والأخرى حتى اتسع نطاقها بأمر طغرل بيك أول ملوك السلجوقية، فإنّه ورد بغداد في سنة ٤٤٧هـ))[٣].

وأمر طغرل بيك بإحراق مكتبة سابور بن أردشير[٤] الشهيرة، ولم يسلم الشيخ الطوسي ((شيخ الطائفة))[٥] الّذي تولى زعامة الطائفة بعد وفاة أستاذه الشريف المرتضى سنة ٤٣٦هـ / ١٠٤٤م من نيران هذه الفتنة الهوجاء، إذ أحرقوا كتبه وكرسيه الّذي كان يجلس عليه للكلام. وقال ابن الجوزي في ((المنتظم)) أحداث سنة ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م: ((وهرب أبو جعفر الطوسي ونهبت داره))[٦]. ثم قال في حوادث سنة ٤٤٩هـ: ((وفي صفر في هذه السنة كبست دار أبي جعفر الطوسي متكلم الشيعة بالكرخ، وأخذ ما وجد من دفاتره وكرسي كان يجلس عليه للكلام، وأخرج إلى الكرخ وأضيف إليه ٣سناجيق بيض كان الزوار من أهل الكرخ قديماً

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢ / ص: ١٥، أحداث سنة ٤١٣هـ.

(٢) راجع ابن الأثير: ج٩ / ص: ٥١٦، دار بيروت ١٩٦٥م.

(٣) ((النهاية والبداية)) المقدمة عن حياة الشيخ الطوسي بقلم آغا بزرك الطهراني، ص: ٩.

(٤) سابور بن أردشير: هو شابور (شاه بور) بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهي ولد بشيراز سنة ٣٣٦هـ وتوفي سنة ٤١٦هـ، مدحه أبو العلاء المعري بقصيدة مشهورة وذكر فيها المكتبة قائلاً:

وغنّت لنا في دار سابور قينةٌ من الورق مطرابُ الأصائل مهبابُ

وقد بنى المكتبة في محلة بين السورين في الكرخ سنة ٣٨١هـ على مثال ((بيت الحكمة)) وقال عنها محمّد كرد علي في ((خطط الشام)) ج٦ / ص: ١٨٥، ونافت كتبها على عشرة آلاف من جلائل الآثار ومهام الأسفار، وأكثرها نسخ الأصل بخطوط المؤلفين ((النهاية ونكتها)) ص: ١٠، المقدمة.

(٥) الشيخ الطوسي: هو أبو جعفر محمّد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي، ولد في طوس في شهر رمضان سنة ٣٨٥هـ، وهاجر إلى العراق سنة ٤٠٨هـ، ونزل بغداد فتتلمذ على يد الشيخ المفيد ثم على يد الشريف المرتضى حيث لازمه لمدة ٢٣ سنة حتى توفي سنة ٤٣٦هـ، فتفرد بزعامة الطائفة، وهاجر إلى النجف سنة ٤٤٨هـ بعد حدوث الفتن والقلاقل في بغداد، فصيّرها مركزاً للعلم وجامعة إسلامية كبرى وتوفي سنة ٤٦٠هـ.

(٦) راجع ابن الجوزي: المنتظم، ج٨ / ص: ١٧٣. ((النهاية ونكتها)) المقدمة ص: ١١.

www.noormags.ir

يحملونها معهم إذا قصدوا زيارة الكوفة فأحرق الجميع))[١].

هاجر الشيخ الطوسي إلى النجف الأشرف، وفي اعتقادنا أنّ هجرته للنجف لم تأت اعتباطاً، بل كانت هنالك دراسة علمية حوزوية في النجف سبقت عصره ثم ازدادت الهجرة إليها بعد الفتن الطائفية التي أشعل نيرانها السلاجقة، ومجيء الشيخ الطوسي إليها، إذ توارد الفقهاء عليها قبل مجيء شيخ الطائفة، بل أخذ العلماء ينتسبون إليها قبل عصره فيها، ومنهم أحمد بن عبد الله الغروي (نسبة إلى الغري)، وشرف الدين بن علي النجفي، وقد وصف الشيخ الطوسي نفسه الأخير بعد هجرته للنجف بقوله ((كان صالحاً فاضلاً))[٢]، ولا بدّ أنّه كان لهؤلاء العلماء طلبة علم تتلمذوا على أيديهم، لذلك يقول الشهيد السيّد محمد باقر الصدر: ((إنّ مؤرخي هجرة الشيخ الطوسي إلى النجف لم يشيروا إطلاقاً إلى أنّ تلامذته في بغداد قد رافقوه والتحقوا بدار هجرته))[٣]. ومن الجدير بالذكر أنّ ابن الأثير في ((الكامل)) ذهب إلى أنّ دراسة العلم في النجف بدأت منذ القرن الثالث الهجري، وبلغت أوج عظمتها في عهد عضد الدولة البويهي حيث أطلق الصلات لأهل العلم ورجال الحديث المقيمين في الغري (كما ارتأى ابن الأثير من سنة ٥٥٥ - ٦٣٣هـ / ١١٦٠ - ١٢٣٤م)، وانّ قصيدة ابن الحجاج التي أثبتنا مطلعها في هذا البحث، والتي يبدو أنّها ألقيت أمام عضد الدولة بحضرة الإمام علي (عليه السلام) يشير أحد أبياتها بصراحة إلى أنّ دراسة العلم في النجف سبقت شيخ الطائفة ((الطوسي)) فاقرأ معي ما يقول:

وقل سلام من الله السلام على أهل السلام وأهل العلم والشرف

ولا نستطيع أن ننقل لك بهذه الخلاصة الخاطفة من تاريخ النجف عن جامعتها وبدايتها

---

(١) المصدر السابق، ج٨، ص: ١٧٩.

(٢) راجع موسوعة النجف الأشرف، ج٦ / ص: ٢٥، مقال بقلم محمّد جواد الفقيه.

(٣) راجع ((المعالم الجديدة)) ص: ٦٤، طبعة النجف. راجع ((دائرة معارف القرن العشرين)) ج٤/ ص: ٦٢٠، محمّد فريد وجدي إذ يذكر: ((شرع في بناء الأزهر سنة ٣٥٩هـ، وكمل بناؤه سنة ٣٦١هـ، وعمر بقراءة العلم سنة ٣٨٠هـ، فهو أقدم مدرسة في العالم)). والعبارة ((فهو أقدم مدرسة في العالم بعد مدرسة بولونيا بإيطاليا فقد قدمته بأكثر من أربعة قرون)) غير صحيحة، إنّ جامعة الأزهر سبقت جامعة بولونيا بـ((١٢٩ سنة)) وليس العكس، إذ تأسست جامعة بولونيا في القرن الحادي عشر (١١١٩م / ٥١٣هـ). وللدكتور السيّد محمّد بحر العلوم دراسة عن ((الجامعة العلمية في النجف عبر أيامها الطويلة)) نشرت في ((مجلة الموسم)) العدد ١٨ سنة ١٩٩٤م / ١٤١٤هـ، فليرجع إليها من شاء؛ لأنّ هذا البحث كتبناه عن ((قبر الإمام والأطوار المبكرة للنجف الأشرف)).

www.noormags.ir

وكيفية نشوئها (مازلنا في كتابنا المخطوط لم نصل إلى هذه المرحلة الزمنية)، ولكن نرى على الأرجح أنها سبقت جامعة الأزهر الشريف (٣٨٠هـ ـ ٩٩٠م) وجامعة بولونيا الإيطالية (٥١٣هـ ـ ١١١٩م) ولا نميل إلى ما ذهب إليه الأستاذ محمّد فريد وجدي في ((دائرة معارفه)) بأنّ الأزهر ((أقدم مدرسة في العالم))، فلعلّ جامعة النجف قد سبقته بقرن من الزمان، بل تعتبر امتداداً لمدرسة الكوفة ومعاهدها وحلقاتها وندواتها العلمية والفقهية والشعرية. وقد تطورت بعد مجيء الشيخ الطوسي إليها، إذ ركزت أسسها وثبتت علومها بأسلوب منهجي متميز، أقرب إلى ما توصلت إليه الدراسات الحديثة لتطور عملية التعليم من حيث فتح باب الاجتهاد الفكري، واختيار الأساتذة من قبل الطلاب أنفسهم، وكذلك المواد التي يرغب الطالب دراستها ـ في حدود المتاح ـ بل تحديد المكان والزمان بما يلائم الطالب وأستاذه، إضافة إلى تناول مراحل الدراسة (المقدمات والسطوح وبحث الخارج) وكيفية اختبار الطالب ومنحه الإجازة في الاجتهاد وتدرجه للوصول إلى المرجعية دون المرور بنظام الامتحانات المألوف. ولكن الّذي يؤخذ على جامعة النجف الأشرف أنّها اختصّت بالعلوم الدينية فقط، فلم تهتم بالعلوم الدنيوية والتجريبية، ونأمل أن توازن جهودها ولو بعد حين وحين.

على كل حال فبعد هجرة الشيخ الطوسي للنجف الأشرف عام ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م تطورت جامعة النجف كثيراً من حيث تنظيم الدراسة وعدد الطلاب ومناهج التعليم والتغطية الاقتصادية والمنزلة الاجتماعية، وعموماً كان الشيخ الطوسي (رحمه الله) قد فتح باب التدريس على طريقة الاجتهاد المتبعة اليوم في النجف، وهو أول من جمع من علماء النجف بين الحديث والفقه والأصول في مؤلفاته...

ونكتفي بهذا القدر من دراستنا عن النجف الأشرف، ونعتذر عن التقصير والكمال لله وحده، وهو الموفق لكل خير.

www.noormags.ir